محمد قطب

قبسات من الرسول

دار الشروق

قبسات من الرسول

الطبعة الشرعية الثامنة
١٤٠٧هـ-١٩٨٧م
الطبعة الشرعية التاسعة
١٤٠٩هـ-١٩٨٩م
الطبعة الشرعية العاشرة
١٤١٢هـ-١٩٩٢م
الطبعة الشرعية الحادية عشرة
١٤١٢هـ-١٩٩٢م
الطبعة الشرعية الثانية عشرة
١٤١٥هـ-١٩٩٥م
الطبعة الشرعية الثالثة عشرة
١٤١٨هـ-١٩٩٧م
الطبعة الشرعية الرابعة عشرة
١٤٢٢هـ-٢٠٠١م
الطبعة الشرعية الخامسة عشرة
١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »

صدق الله العظيم

مقدمة الطبعة الشرعية الخامسة

تصدر هذه الطبعة (عام ١٣٩٨ هـ) ونحن على مقربة من نهاية القرن الرابع عشر الهجرى وبداية القرن الخامس عشر . .

وما أحوجنا ـ فى هذه الفترة الدقيقة من حياتنا ـ أن نراجع مسيرتنا خلال تلك القرون ، على ضوء الكتاب والسنة ، اللذين أخرجا من قبل « خير أمة أخرجت للناس » واللذين هما معيار خيرية هذه الأمة . فعلى قدر استقامتها عليهما تتحقق خيريتها ، وعلى قدر انحرافها عنهما تظل تنحدر حتى تصير إلى ذلك الغثاء الذى تحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهو يرى تلك الفترة العصيبة بنور الوحى : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : لا ! إنكم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . . »

واليوم تقوم ـ على هدى الكتاب والسنة كذلك ـ حركات بعث إسلامي فى كل أرجاء العالم الإسلامى ، يرجى أن تنقذ هذا الغثاء من وهدته ، وتعيده « خير أمة أخرجت للناس » .

فما أحوجنا أن نتعرف على كتاب ربنا الكريم ، وما أحوجنا كذلك أن نقبس « قبسات من الرسول » ـ صلى الله عليه وسلم ـ نقوّم بها ما أعوج فى حياتنا من خطوات . .

ومازلت أرجو أن يصدر مزيد من الكتب والدراسات التى يتناول فيها الكتاب سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحاديثه بالطريقة التى تقربها لهذا الجيل ، وتقرب هذا الجيل كذلك من الإسلام .

والله الموفق إلى ما فيه الخير

محمد قطب

مقدمة الكتاب

لا أحسب أحداً من البشر نال من الحب والإعجاب ما ناله محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فإن أتباعه المؤمنين لا يمنعهم من تقديسه شيء إلا نهى الله لهم أن يتوجهوا بالعبادة والتقديس لأحد سواه . ومع ذلك فإن درجة الحب التى يتوجهون بها إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكاد تفلت أحياناً فى قلوب بعض المسلمين فلا يمسكها هذا النهى إلا بجهد جهيد ! وإن بعضهم لتصيبه حالات من الوجد فى حب الرسول حتى لينسى نفسه ، وتختلج مشاعره وقسمات وجهه ، وتنهمر عيناه بالدموع ، ثم لا يفيق من قريب ! حتى بين « أجف » المسلمين قلباً ، وأغلظهم مشاعر (إن صح أنهم مسلمون مع ذلك !) ، لن تجد منهم من لا يتوجه للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحب والتعظيم ، ولو كان يعبد الله على حرف ، ولا يقيم كثيراً من قواعد الدين !

أما غير أتباعه فقد هاجمه كثير منهم ، ومع ذلك فإن أغلبية عظيمة من هؤلاء لم تملك نفسها من الإعجاب بشخصه ، بصرف النظر عن دينه ، فقالوا عنه إنه رجل عظيم ، وقالوا إنه يملك الصفات التى تحبب إليه الناس .

نعم . . لا أحسب أحداً من البشر نال من الحب والإعجاب ما ناله محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ومع ذلك فإنى أحسب أن كثيراً من المسلمين ، وخاصة فى هذه الأعصر

الحديثة ، لا يقدرون الرسول حق قدره ، حتى وهم يتوجهون إليه بالحب ، بل حتى وهم ينحرفون بهذا الحب إلى لون من التقديس !

ذلك أنه حب سلبي لا صدى له في واقع الحياة !

وإن صورة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قلوب هؤلاء المسلمين لتعانى عزلة وجدانية عميقة .

إنه هنالك في أعمق أعماقهم . إنه روح نورانية شفيفة ، إنه سنًى مشرق ، إنه ومضات من النور الرائق والشعاع المتألق . إنه روح سارية في حنايا القلب وفي أنحاء الكون . . ومع ذلك فهو ليس حقيقة واقعة !

إنه حقيقة « صوفية » منعزلة في الوجدان ، واصلة إلى آخر أعماقه ، ولكنه ليس صورة حية متحركة في واقع الحياة ، شاخصة بلحمها ودمها ، وأفكارها ومشاعرها ، وتنظيماتها وتوجيهاتها ، وهدمها وبنائها ، وماديا‌تها وروحانياتها سواء !

ولا شك أن لهذه العزلة أسباباً تاريخية . . . .

ففي عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ منعزلاً في وجدان المسلمين .

كان المسلمون قريبي العهد به ، مازالوا يعيشون مع ذكراه الحية في نفوسهم ، وصوره الشاخصة في مخيلتهم ، في غدوه ورواحه ، وحربه وسلمه ، وعبادته وعمله . صورة متكاملة تشمل الحياة كلها في أعماق الضمير وفي واقع المجتمع على السواء .

ولكن قرب العهد لم يكن وحده السبب في إحساس المسلمين به حياً في نفوسهم ، متكاملاً في مشاعرهم . وإنما كان إلى جانب ذلك سبب على أعظم

جانب من الأهمية ، هو امتداد تعاليم الرسول ومنهجه التربوى فى تصرفات أبى بكر وعمر وطريقة سياستهما لأمور المسلمين .

لقد أحس المسلمون أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حى بتعاليمه ومنهجه ، حتى وإن غابت ذاته الرفيعة عنهم فى عالم الحس .

وما عالم الحس من واقع النفس ؟

إن الأشياء لا تقاس بوجودها أو عدم وجودها فى عالم الحس . وإنما تقاس بمقدار ما توجد فى عالم النفس ، وبالمساحة التى تشغلها من المشاعر والأفكار والسلوك .

ولا شك أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان « موجوداً » فى نفوس المسلمين على عهد أبى بكر وعمر ، وعلى مدار الأجيال التى لم تره بعد ذلك ، أضعاف أضعاف ما كان موجوداً فى نفس أبى جهل أو غيره من المشركين ، ممن رأوه رأى العين ، وجالدهم وجالدوه ، ولكنهم لم يؤمنوا به ، ولم يقووا على حبه فأبغضوه .

وعلى هذا الأساس وحده نقيس وجود الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نفوس المؤمنين وغير المؤمنين .

وعلى عهد الشيخين كانت الحياة كلها محكومة بتعاليم الإسلام وروحه ، وكان الشيخان على قمة البشرية بعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يتطلع الناس إليهما فى تصرفاتهما ، وسلوكهما ، ومشاعرهما ، وأفكارهما فيدركون القبس الخالد الذى يقبسان منه ، ويرون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى الواقع فى قلبيهما الكبيرين ، فيعيشون فى ظلهما مع الرسول فوق ما يعيشون معه فى ذكرياتهم الخاصة ، ووجداناتهم التى كانت بدورها قد شحنت بتلك القبسات المشرقة من قبسات الرسول .

وجاء عثمان رضى الله عنه فسار فى أول عهده على هدى الشيخين ما استطاع ، ولكن رويداً رويداً أخذ نفوذ مروان بن الحكم ومنهجه يغلبان على الحكم ، وعثمان رضى الله عنه تثقله السن . وبدأ المسلمون يحسون بافتراق الطريق . وبدأت الصورة المتكاملة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنحسر شيئاً فشيئاً إلى داخل النفوس ، بعد أن كانت ملء النفوس وملء الحياة معاً وعلى نسق واحد .

وكلما انفرجت الشقة بين الواقع المشهود وبين تعاليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوجيهاته ، زادت صورته انحساراً فى نفوس المسلمين ، حتى ينتهى الأمر إلى أن تصبح « مثالاً » متألقاً فى أعماق الوجدان ، لا صورة حية فى العيان ، مثالاً منعزلاً عن واقع الحياة ، لا يحكمها ولا يرسم منهجها ، ولا يتجه الشعور إليه لتسيير دفتها !

ولكن أجيالاً متطاولة مضت قبل أن تتم العزلة فى صورتها العنيفة التى تقوم اليوم فى قلوب المسلمين .

كان الحكم فى البلاد الإسلامية ـ رغم بعده التدريجى عن روح الإسلام ـ يقوم باسم الإسلام !

وكان المجتمع إسلامياً رغم فساد الحكام !

نعم . لقد ظل المجتمع فى الريف والمدن البعيدة عن العواصم إسلامياً قرابة ألف سنة ، لا يتأثر بفساد الحكم ، ولا تصل إليه العدوى من العاصمة المنحلة التى فيها القصور الماجنة ، وصور الحياة الدنسة .

وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يحكم فى العاصمة ، ولا يرسم سياسة المال ، ولكنه كان يُحكِم الروابط بين قلوب المسلمين فى الريف والمدن البعيدة ، فتقوم بينها محبة الإسلام وتكافل الإسلام وتراحم الإسلام ، فى الوقت

الذى كانت « البيئة الزراعية » المماثلة فى أوربا تقوم على علاقة السادة والعبيد : سادة لهم الأمر كله والملك كله ، وعبيد ليس لهم من الأمر شىء سوى العبودية المطلقة والانعدام الذليل .

فى تلك الأثناء كانت بقية من صورته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تنعزل بعد فى وجدان المسلمين . ورغم أن المذاهب « الصوفية » كانت نشيطة فى المجتمع الإسلامى كله فى ذلك الوقت ، والصوفية تجنح إلى العزلة عن الحياة والبعد عن مجالدتها ، إلا أن هذه المذاهب قد أدت دوراً تاريخياً فى منع المجتمع الإسلامى من التفكك ، والإبقاء عليه مترابطاً « بأخوة » الصوفية كما أنها فى غير قليل من الأحيان كانت تدخل معترك السياسة ولو من وراء ستار . .

أما العزلة الكاملة الموحشة المرهوبة ، فقد تمت وأحكمت حلقاتها حين بَعُدَ الحكم والمجتمع كلاهما عن الإسلام : اسمه وروحه ، وصار الغرب هو الذى يحكم السياسة والمجتمع : باسمه الصريح حيناً ، وعلى يد صنائعه النافرين من الإسلام حيناً آخر . وصار المجتمع الإسلامى صورة متحللة فاسدة من الأفكار الغريبة عن الحياة . لا هى اسلامية كما كانت ، ولا هى نسيج واحد متميز ، ولا تملك حتى القوة المادية التى يملكها الغرب ، وإنما هى مسخ مشوه لا وحدة له ولا كيان .

عندئذ لم يعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « موجوداً » أصلاً فى واقع الحياة . لم يعد كياناً حياً شاخصاً بلحمه ودمه ، وأفكاره ومشاعره ، وتنظيماته وتوجيهاته ، ومادياته وروحانياته . . وانحصر وجوده فى مشاعر الناس السلبية ، فى أعمق أعماقها . . فى حالات الوجد والهيام . . أصبح صورة . . مجردة صورة مثالية . لا يمسكها إلا الحب العنيف أن تكون أسطورة محلقة فى الخيال !

يا حسرة على العباد !

كيف جاز لهم أن يصنعوا ذلك ؟ كيف جاز لهم أن يبددوا أكبر طاقة بشرية كونية فى هذا الوجود ، فينحسروا بها فى عزلة عن الحياة ؟! وهل رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى يصنع معه هذا الصنيع ؟ الرسول الذى كان طاقة حية متحركة فعالة هادمة بناءة لا تكف لحظة عن النشاط ؟ الرجل الذى كان كله حياة فى واقع الأرض ، يصبح معزولاً عن واقع الأرض ؟! وممن ! من أتباعه ومحبيه !

لو عاش ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صومعته . .

لو كان « فيلسوفاً » ممن ينشئون الأفكار ويعجزون عن التنفيذ . .

لو كان ممن يحدثون عن « الأحلام » الجميلة و « المثل » الرفيعة ولا يبين لهم فى واقع الأرض كيف تكون الطريق .

لو أنه كان « شاعراً » أو « كاهناً » . . .

لو أنه كان شيئاً من هذا كله لجاز للناس أن يعزلوه فى وجدانهم ، فيمنحوه الحب « النظرى » والإعجاب المجرد ، ثم . . لا يلتفتوا إليه وهم يواجهون عالم الواقع ويضربون فى مناكب الأرض .

أما وهو الذى بين لهم كيف يضربون فى مناكب الأرض . . أما وهو الذى أمسك المعول بيده فهدم الباطل أمام أعينهم وبنى بدله صرح الحق . . أما وهو الذى حارب معهم وأقام السلم . . وشيد بناء الدولة لهم لبنة لبنة حتى قام شاهقاً لا يطاوله بناء على الأرض . . وأكل معهم وشرب، وصحبهم وصحبوه، وعاش أمامهم كل لحظة من لحظات الحياة ، وكل وجدان من وجداناتها وكل سلوك ، ورأوه « يتصرف » فى كل شأن من الشئون كبيرها وصغيرها ، ليكون تصرفه سنة تحتذى ، ويكون فيه أسوة حسنة للناس . .

أما وهو هذا كله فأى جرم فى تبديد هذه الطاقة البشرية الكونية الكبرى ، وحصرها فى داخل الوجدان ؟!

وهل جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينعزل فى الوجدان ، والدين الذى جاء به هو الدين الذى يأبى الانعزال فى الوجدان ؟!

إن أبرز سمة فى هذا الدين أنه دين الظاهر والباطن على حد سواء . لايرضى أن يكون الظاهر نظيفاً والباطن غير نظيف ، فيصبح رئاء الناس . ولا يرضى أن يكون الباطن نظيفا ولا صدى له فى الظاهر فيفقد مهمته ومعناه . إنه الدين الذى يجعل العمل عبادة . . ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الرسول الذى ظل حياته كلها يتعبد بالعمل . . العمل المثمر النافع الظاهر للعيان .

فكيف جاز بعد هذا كله أن يتحول فى قلوب المسلمين إلى مثال منعزل ، ولو كان أرفع مثال على الأرض وأنبل مثال؟!

* * *

ولقد كان إحساسى بالرسول الكريم دائماً هو إحساسى بالواقع المجسم ، لا بالخيال المحلق فى الفضاء .

وكانت تهز وجدانى هزاً عنيفا هذه الصورة المعروفة فى كتب السيرة كلما قرأتها : « كان يمشى وكأنه يتقلع من الأرض . . . » وترتسم فى خيالى صورة رائعة ، حية شاخصة ، ممتلئة بالحيوية ، متوفزة النشاط . . عظيمة فى هذا كله عظمة لا تحد . وانظر إلى الصورة التى تجسمت فى خيالى فأرى النور الرائق الصافى يشع من أعماق روحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وينفذ إلى أعماق نفسى ، ويغلبنى الوجدان وأنا أنظر إلى هذه الروح الصافية العميقة الشفافة المشعة ، ومع ذلك فلا تلبث صورته أن تتحرك . . وأراه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

يمشى وكأنه يتقلع من الأرض . أراه . . بمقدار ما تطيق روحى أن تصل إليه . . متحركاً يضرب فى مناكب الأرض ، ويشق طريقه فى قوة وثبات وتمكن ، ويقيم البناء كله لبنة لبنة . . وأراه فى مواقفه النفسية الدقيقة العميقة ، فأكاد ألمس النفس الجياشة المتحركة الدافقة . وأراه فى لحظات تعبده ، والنور يتألق من روحه ومن طلعته ، فأحس كأن هذا النور يتحرك . . يتحرك ممتداً حتى يشمل الفضاء .

الحركة الحية المتوفزة هى فى نفسى صورة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم لا أحس بها منعزلة فى الوجدان . .

ثم أرى العزلة التى تعانيها صورته فى وجدان المسلمين ، فأعجب للناس كيف يحبونه كل هذا الحب ، ثم لا يتدبرون حياته للقدوة والأسوة كما قال لهم ربهم فى كتابه المبين ؟!

* * *

وليس هذا كتاباً فى سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ !

وإنما هو جهد متواضع كل همى منه أن أحاول إخراج صورة الرسول من عزلتها الموحشة فى قلوب المسلمين .

هدفى أن أقول للناس تدبروا بعض أقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وانظروا كيف كانت كل كلمة يقولها منهج تربية ومنهج سلوك ومنهج تفكير ومنهج حياة . .

إنها مختارات متفرقة من الأحاديث ، أو « قبسات من الرسول » كما أسميتها ، كل منها يصلح أن يكون أحد « مفاهيم » الإسلام ، مفاهيمه الواقعية الضاربة فى مناكب الأرض ، المتلبسة بصميم الحياة .

وليست هذه المختارات استقصاء لكل المفاهيم ، ولا استقصاء لكل ما قيل
ى من هذه المفاهيم . وإنما هي مجرد مختارات كتبتها كما خطرت ببالى .
سبى منها أن تفتح الطريق .
اللهم وفقنى . . وأوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ . . إنى لما
ت إلىَّ من خير فقير . . .

محمد قطب

فَلْيغرسهـا ..!

« إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك أجر »(١)

ولعل آخر ما كان يدور فى ذهن السامعين أن يقول لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الحديث !

ولعلهم توقعوا أن يقول لهم الرسول الذى جاء ليذكر الناس بالآخرة ، ويحثهم على العمل لها ، ويدعوهم إلى تنظيف ضمائرهم وسلوكهم من أجل اليوم الأكبر : يوم الحساب الذى تدان فيه النفوس . . لعلهم توقعوا أن يقول لهم : فليسرع كل منكم فليستغفر ربه عما قدمت يداه ، وليتوجه لله بدعوة خالصة أن يميته على الإيمان ويقبل توبته ويبعثه على الهدى . . ولعلهم توقعوا أن يقول لهم : أسرعوا فانفضوا أيديكم من تراب الأرض . . وتطهروا . اتركوا كل أمور الدنيا وتوجهوا بقلوبكم إلى الآخرة . انقطعوا عن كل ما يربطكم بالأرض . اذكروا الله وحده . توجهوا إليه خالصين من كل رغبة فى الحياة ، حتى إذا ذهبتم إلى ربكم ، ذهبتم وقد خلصت نفوسكم إليه ، فيقبل أوبتكم ويظلكم بظله ، حيث لا ظل إلا ظله .

ولو قال لهم ذلك فهل من عجب فيه ؟!

أليس الطبيعى وقد تيقن الناس من القيامة أن ينصرفوا للحظة المرهوبة ؟

---

(١) ذكره على بن العزيز فى المنتخب بإسناد حسن عن أنس رضى الله عنه . «عمدة القارئ فى شرح صحيح البخارى لبدر الدين العينى ، باب الحرث والزراعة» .

أليس الطبيعي والهول المهول على الأبواب أن ينسلخ الناس من كل وشيجة تربطهم بالأرض ، ويتطلعوا فى رهبة الخائف وذهول المرتجف إلى قيام اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد ؟!

فإذا قال لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا تقفوا مذهولين مرجوفين مرعوبين ، ولكن توجهوا إلى الله أن ينقذكم من هذا الكرب العظيم ، أخلصوا له الدعاء فهو قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . هلموا تطهروا ، وصلوا إلى الله خاشعين . .

إذا قال لهم الرسول ذلك وضع البلسم الشافي على الأرواح المكلومة . وقد وضع يده الحانية يربت بها على النفوس المهتزة المزلزلة الراجفة فتطمئن . وقد فتح الكوة التى يطل منها على القلوب المكفهرة المذعورة بصيص الأمل والأمن والرجاء . .

ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقل شيئاً من ذلك كله الذى توقعه السامعون .

بل قال لهم أغرب ما يمكن أن يخطر على قلب بشر !

قال لهم : إن كان بيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم الساعة فليغرسها . . فله بذلك أجر !

يا ألله ! يغرسها ؟! وما هى ؟ فسيلة النخل التى لا تثمر إلا بعد سنين ؟ والقيامة فى طريقها إلى أن تقوم ؟ وعن يقين ؟ !

يا ألله ! لن يقول هذا إلا نبى الإسلام خاتم النبيين !

الإسلام وحده هو الذى يمكن أن يوجه القلوب هذا التوجيه ، ونبى

الإسلام وحده هو الذى يمكن أن يهتدى هذا الهدى ، ويهدى به الآخرين !

وهذا تاريخ الأرض كلها . . ليس فيه مثل هذه القبسة من قبسات الرسول !

* * *

وهى كلمة بسيطة لا غموض فيها ، ولا صنعة ، ولا « تفنن » . كلمة ـ رغم غرابتها لأول وهلة ، وبدهها للفكر على غرة ـ تخرج بسيطة كبساطة الفطرة ، عميقة كعمق الفطرة ، شاملة واسعة فسيحة ، تضم بين دفتيها منهج حياة . . منهج الحياة الإسلامية .

كم من معنى تستخلصه النفس من الكلمات البسيطة العميقة فى آن .

أول ما يخطر على البال هو هذه العجيبة التى يتميز بها الإسلام : أن طريق الآخرة هو هو طريق الدنيا بلا اختلاف ولا افتراق !

إنهما ليسا طريقين منفصلين : أحدهما للدنيا والآخر للآخرة ! وإنما هو طريق واحد يشمل هذه وتلك ، ويربط ما بين هذه وتلك .

ليس هناك طريق للآخرة اسمه العبادة . وطريق للدنيا اسمه العمل !

وإنما هو طريق واحد أوله فى الدنيا وآخره فى الآخرة . وهو طريق لا يفترق فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل . كلاهما شىء واحد فى نظر الإسلام . وكلاهما يسير جنباً إلى جنب فى هذا الطريق الواحد الذى لا طريق سواه !

العمل إلى آخر لحظة من لحظات العمر . إلى آخر خطوة من خطوات الحياة ! يغرسها والقيامة تقوم هذه اللحظة . عن يقين !

وتوكيد قيمة العمل ، وإبرازه والحض عليه ، فكرة واضحة شديدة الوضوح فى مفهوم الإسلام . ولكن الذى يلفت النظر هنا ليس تقدير قيمة

العمل فحسب ، وإنما هو إبرازه على أنه الطريق إلى الآخرة الذى لا طريق سواه .

وقد مرت على البشرية فترات طويلة فى الماضى والحاضر ، كانت تحس فيها بالفرقة بين الطريقين . كانت تعتقد أن العمل للآخرة يقتضى الانقطاع عن الدنيا ، والعمل للدنيا يزحم وقت الآخرة !

وكانت هذه الفرقة بين الدنيا والآخرة عميقة الجذور فى نفس البشرية ، لا تقف عند هذا المظهر وحده ، وإنما تتعداه إلى مفاهيم أخرى تتصل بالكيان البشرى فى مجموعه .

فالدنيا والآخرة مفترقتان .

والجسم والروح مفترقان .

والمادى يفترق عن « اللامادى » .

والفيزيقا ـ بلغة الفلاسفة ـ تفترق عن الميتافيزيقا .

والحياة العملية تفترق عن الحياة المثالية أو عن مفاهيم الأخلاق . إلى آخر هذه التفرقات التى تنبع كلها من نقطة واحدة ، هى التفرقة بين الدنيا والآخرة ، أو بين الأرض والسماء . وحين تعيش البشرية على هذه الفكرة المفرقة الموزعة ، تعيش ولا جرم فى صراع دائم محير مضلل . تعيش موزعة النفس منهوبة المشاعر . لا تحس بوحدة تجمع كيانها ، أو رابط يربط أشتاتها . فلا تعرف الراحة ولا تعرف السلام .

والفرقة بين الأهداف المتعارضة شقوة قديمة وقعت فيها البشرية وما تزال واقعة .

وقد كانت تؤدى فى القديم إلى عزلة بعض الناس وتنسكهم ، وتكالب

آخرين على الحياة يجعلونها همهم الأوحد ، ينتهبون ما فيها من متعة قبل وقت الفوات ، فتملكهم شهواتهم ولا يملكون نفسهم منها ، وتقتلهم فى نهاية الأمر . يستوى أن توردهم موارد الحتف ، أو تشقيهم بالتعلق الدائم الذى لا يهنأ ولا يستقر .

وما تزال هذه الفرقة تؤدى إلى نتائجها تلك فى العالم الحديث . ولكنها تزيد فى « مدنيتنا » الحاضرة حتى تبلغ مبلغ الجنون ! وحالات الهستريا ، وضغط الدم واضطراب الأعصاب ، والجنون الكامل ، والانتحار . . تتزايد فى ظل الحضارة الحديثة إلى درجة خطرة تؤذن بتدمير الطاقة البشرية وتفتيتها ، وهى صدى لتلك الفرقة التى توزع النفس الواحدة فى وجهات شتى ثم لا تربط بينها برباط[1]

والكيان النفسى بحكم فطرته التى فطره الله عليها . . وحدة .

وحدة تشمل الجسم والعقل والروح . تشمل « المادة » و « اللامادة » تشمل شهوات الجسد ورغبات النفس وتأملات العقل وسبحات الروح. تشمل نزوات الحس الغليظة وتأملات الفكر الطليقة ورفرفات الروح الطائرة .

ولا شك أن جزئيات هذا الكيان متعارضة ، وأن كلاً منها جانح فى اتجاه . .

ذلك إذا تركت وشأنها ، ينبت كل نابت منها على هواه !

ولكن العجيبة فى هذا الكيان البشرى ، عجيبة الفطرة التى فطره الله عليها ، أن هذا الشتات النافر المنتشر ، يمكن أن يجتمع ، يمكن أن يتوحد ،

---

(١) جاء فى إحصاء طبى أن عشرة فى المائة من الأمريكيين مصابون بالصداع الدائم كمرض ، أى أنه ليس الصداع الطارئ الذى تشفيه المسكنات ، وإنما هو صداع دائم لايشفى ! ثم قال التقرير إن هذه النسبة آخذة فى الارتفاع

يمكن أن يترابط ، ثم يصبح ـ من عجب ـ فى وحدته تلك وترابطه ، أكبر قوة على الأرض ! ذلك حين تقبس الذرة الفانية من حقيقة الأزل الخالدة ، فتشتعل وتتوهج ، وتصبح طليقة ، كالنور . . تمتزج فيها المادة واللامادة فهما سواء !

والطريق الأكبر لتوحيد هذا الشتات النافر المنتثر، وربطه كله فى كيان، هو توحيد الدنيا والآخرة فى طريق !

عندئذ لا تتوزع الحياة عملاً وعبادة منفصلين . ولا تتوزع النفس جسماً وروحاً منفصلين . ولا تتوزع الأهداف عملية ونظرية ، أو واقعية ومثالية لا تلتقيان !

حين يلتقى طريق الدنيا بطريق الآخرة ، وينطبقان فهما شىء واحد ، يحدث مثل هذا فى داخل النفس ، فتقترب الأهداف المتعارضة . ويلتقى الشتات المتناثر ، ثم ينطبق الجميع فهو شىء واحد . وتلتقى النفس المفردة ـ بكيانها الموحد ـ تلتقى بكيان الحياة الأكبر ، وقد توحدت أهدافه وارتبط شتاته ، فتتلاقى معه ، وتستريح إليه ، وتنسجم فى إطاره ، وتسبح فى فضائه كما يسبح الكوكب المفرد فى فضاء الكون لا يصطدم بغيره من الأفلاك ، وإنما يربطها جميعاً قانون واحد شامل فسيح .

والإسلام يصنع هذه العجيبة !

ويصنعها فى سهولة ويسر !

يصنعها بتوحيد الدّنيا والآخرة فى نظام .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » (١)

---

(١) سورة القصص [٧٧] .

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »[1]

وقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الترجمة الكاملة الصادقة للحقيقة الإسلامية . ومن ثم كانت الدنيا والآخرة فى نفسه طريقاً واحداً ونهجاً واحداً و « حسبة » واحدة .

أى عمل من أعماله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن مقصوداً به وجه الله والآخرة ؟

وأى لحظة كف ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن العمل فى الدنيا ، والعمل لإصلاح الأرض ؟

حتى الصلاة . . ألم يكن صلوات الله وسلامه عليه يستعين فيها الله أن يمكنه من أداء رسالته على الوجه الأكمل ، ورسالته هى هداية الناس فى الأرض ، ليعرفوا الله واليوم الآخر ؟!

حلقة واحدة لا تنقطع : العمل والعبادة ، والدنيا والآخرة ، والأرض والسماء !

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو القدوة والأسوة الحسنة ، وهو واضع المنهاج العملى لتحقيق الإسلام فى عالم الواقع . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعتزل الناس ليتطهر لربه فى معزل . فعباداته يقضيها أمامهم ومعهم وهم فى صحبة منه . فإذا كان يخلو إلى ربه فى جنح الليل يتعبد ، فكل نفس بشرية تهفو إلى الخلوة حيناً من الوقت ، وكل نفس تملك أن تصفو فى هذه الخلوة فوق ما تصفو فى حضرة الآخرين . ولكن المهم أنه فى أعمق خلواته وأصفاها

---

(١) سورة الأعراف [٣٢] .

لا ينسى أنه رسول الله ، المكلف بأداء رسالة الله .

والرسول يحارب فى سبيل الله . ويسالم فى سبيل الله . ويدعو الناس إلى سبيل الله . ويأكل باسم الله . ويتزوج على سنة الله . ويهدم ويبنى ، ويحطم وينشئ ، ويهاجر ويتوطن . . كل ذلك فى سبيل الله ، واليوم الآخر ، يوم يلقى الله . فكل عمله إذن عبادة يتوجه بها إلى الله . والطريق أمامه طريق واحد . . هو الطريق إلى الله . . .

وهو يسير فى هذا الطريق الأوحد الذى لا طريق غيره ، يسير قدماً لا يتلفت ولا يتحول . . ولا يكف عن المسير . .

إلى آخر لـحظة من حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يســير فى الطريق .

كان يعمل فى الدنيا وهو يبغى الآخرة ، ويعمل للآخرة بالعمل فى الأرض .

حتى حين نزلت الآية : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » وأحس عمر ـ رضى الله عنه ـ أنها النهاية فدمعت عيناه . . حتى فى مرض الموت . . حتى فى اللحظة الأخيرة لم يزايله انشغاله بأمور الدنيا . . بأمور الناس . . بإصلاح الأرض . . بهداية البشرية . . برسم المنهج الذى يسيرون عليه . . بتوطيد أركان الدين وتوثيق عراه . .

وكان يقول والوجع يشتد عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إيتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً . . » .

كانت فى يده الفسيلة وكان يغرسها . .

ولم يدع يديه منها ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى فاضت روحه الكريمة الطاهرة إلى مولاه . .

* * *

وإن فى ذلك لدرساً يقتدى فيه المسلمون بنبيهم ، ويهدون به البشرية الضالة إلى سواء السبيل .

يتعلمون أن يربطوا طريق الدنيا بطريق الآخرة .

يتعلمون أن الدين ليس عزلة عن الحياة ، وإنما هو صميم الحياة . ليس عزلة عن تيار الحياة الصاخب المضطرب فلا يركبون فيه مركبهم مع الراكبين .

وأنهم لا يرضون ربهم ولا يخدمون دينهم إذا أحسوا أنه ينبغى عليهم أن ينسوا الله والدين إذا دخلوا معترك الحياة وعملوا لإصلاح الأرض .

لن يرضوا الله ولن يخدموا الدين إذا دخلوا المدرسة أو الجامعة أو المعمل أو المصنع أو المتجر وفى حسابهم أنهم الآن يعملون للأرض ويعملون للدنيا ، وأنهم فى لحظة أخرى حين يفرغون من عمل الأرض سيعودون ـ إذا عادوا ـ إلى الله ، فيعبدونه ويتوجهون إليه !

كلا ! ليس ذلك من الإسلام !

إنما الإسلام أن يأكلوا باسم الله ، ويتزوجوا باسم الله ، ويتعلموا باسم الله وفى سبيل الله ، ويعملوا وينتجوا ويتقووا ويستعدوا . . فى سبيل الله . لا تشغلهم الدينا عن الآخرة ، ولا الآخرة عن الدنيا ، لأنهما طريق واحد لا يفترقان .

وحين يتعلم المسلمون ذلك : حين يتعلمون أنهم إذا درسوا الطاقة الذرية واستخدامها فى السلم والحرب يمكن أن يكونوا متصلين بالله وفى سبيل الله . حين يتعلمون أنهم وهم يدرسون النظم السياسية والاقتصادية والإصلاح الاجتماعى ، أو يطبقونها على الناس وهم يسوسون أمورهم ، يمكن أن يكونوا متصلين بالله وفى سبيل الله . حين يتعلمون أنهم وهم فى خلوتهم مع أزواجهم يحققون هدف الحياة الأكبر ، يمكن أن يذكروا اسم الله ويكونوا فى سبيل الله . .

حين يتعلمون أن عملاً واحداً من أعمال الأرض الكثيرة المتفرقة لا يمكن أن يخرج عن الطريق إلى الآخرة إذا أقدم عليه الإنسان وهو مسلم مؤمن بالله متوجه إلى الله . . ..

بل حين يتعلمون أنه لا يمكنهم أن يخدموا الآخرة إلا بإصلاح الدنيا ، ولا يصلوا للآخرة إلا عن طريق الأرض ، وأن عليهم أن يظلوا إلى آخر لحظة من حياتهم يعمرون الأرض ويغرسون فسائلها ، وإلا فلن يصلوا إلى رضوان الله . .

حين ذلك يكونون مسلمين حقاً . .

وحين ذلك يكونون قدوة للأمم كلها على سطح الأرض ، كما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو قدوتهم .

« ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » .

عندئذ يكون لديهم ما يعلمونه للعالم كله ، وللغرب المفتون خاصة . الغرب الذى أصابه الجنون فقام بحربين متواليتين فى ربع قرن ، وهو اليوم يستعد لتدمير الأرض !

يستطيعون أن يقولوا للناس فى كل الأرض : لقد ألغيتم « الله » من حسابكم لأنكم ظننتم أنه يعوّقكم عن تعمير الأرض، وعن تعلم العلم، وعن استغلال طاقة الأرض ، وعن الاستمتاع بالحياة !

ولكنه فى الواقع ليس كذلك !

إنه يدعو إلى كل هذا الذى تهفون إليه : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » وإنما يريد فقط أن توحدوا طريقكم ، فلا تجعلوا طريقاً للدنيا وطريقاً للآخرة منفصلتين ، وإنما طريق واحدة للدنيا والآخرة ، هى الطريق إلى الله .

* * *

وليس هذا هو الدرس الوحيد الذى نتعلمه من هذا الحديث العجيب .

فلا يأس مع الحياة !

والعمل فى الأرض لا ينبغى أن ينقطع لحظة واحدة بسبب اليأس من النتيجة !

فحتى حين تكون القيامة بعد لحظة ، حين تنقطع الحياة الدنيا كلها ، حين لا تكون هناك ثمرة من العمل . . حتى عندئذ لا يكف الناس عن العمل وعن التطلع للمستقبل ، ومن كان فى يده فسيلة فليغرسها !

إنها دفعة عجيبة للعمل والاستمرار فيه والإصرار عليه !

لا شىء على الإطلاق يمكن أن يمنع من العمل !

كل المعوقات . . كل الميئسات . . كل « المستحيلات » . . كلها لا وزن لها ولا حساب . . ولا تمنع عن العمل .

وبمثل هذه الروح الجبارة تعمر الأرض حقاً وتشيد فيها المدنيات والحضارات .

كل ما فى الأمر أن الإسلام وهو يدعو لتعمير الأرض ، والعمل فى سبيلها ، لا ينحرف بالأفكار والمشاعر عن طريق الله وطريق الآخرة ، لأنه لا يفصل بين الدنيا والآخرة ، ولا بين الحياة العملية و « الأخلاق » . إنه لا يقول ـ كما يقول الغرب المنحرف ـ فلأعمر الأرض ، ولا يعنينى أن ترتفع أخلاق الناس أو تهبط ، فللعمل مقاييس وللأخلاق مقاييس ! لا تهمنى أخلاق الرجل ما دام «إنتاجه » يعجبنى ! فهذه النظرة المبتسرة الهابطة لا تلبث أن تدمر فى لحظة ما بنته فى أجيال . وأن تحيل العمار كله إلى خراب ! بل إن هذه النظرة المبتسرة الهابطة لتوزع النفوس والأفكار بين الخير والشر ، وبين الواقع والمثال ، فتكون

النتيجة القريبة هى الأمراض العصبية والجنون والانتحار ، وذلك وحده تدمير للنفوس وتبديد للطاقة ، ولو لم يحدث الدمار الشامل والخراب الرهيب .

وقد كان المسلمون وهم يؤمنون بدينهم ويعملون به يبنون أروع حضارات الأرض وينشئون أرفع مفاهيمها . . ولا ينحرفون عن طريق الله .

كانت طاقة « العمل » تدفعهم للإنشاء والتعمير ، والفتح والانسياح فى الأرض ، فبلغوا فى لمحة خاطفة من الزمن ما لم يبلغه غيرهم فى قرون ، وأقاموا فى كل مكان مثلاً للعدالة الإنسانية كانت ـ وما تزال ـ غريبة على البشرية ، ينظرون إليها كما ينظرون للأحلام والأساطير .

حين أعاد أبو عبيدة الجزية لأهل الشام يوم علم باحتشاد جيش الروم وخشى ألا يقدر على حمايتهم ، وقال لهم : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » .

حين صنع ذلك كان يقوم بإحدى المعجزات التى أنشأها الإسلام على وجه الأرض . يعمل . ويجتهد فى عمله إلى أقصى الغاية ، ويضرب فى مناكب الأرض . ويحارب ويغزو . ولا ينسى الله لحظة واحدة فى ذلك كله ولا يفترق طريقه فى الدنيا عن طريقه إلى الآخرة ، لأنه يعمل ذلك كله فى سبيل الله .

وحين تم النصر لصلاح الدين فى الحروب الصليبية وأمكنه الله من أعداء دينه الذين غدروا من قبل بعهد الله ، وذبحوا المسلمين داخل البيت المقدس ، واعتدوا بغلظة ووحشية على كل حرمات البشرية . . لم يثأر لنفسه ، ولم يمثل بهم ، ولم يعمل فى رقابهم السيف ـ وهو مأذون بذلك من كل شرائع السماء والأرض معاملةً بالمثل ـ بل صفح وعفا ، وارتفع على نفسه وعلى النفس «البشرية» كلها . .

حين ذلك كان يقوم بمعجزة أخرى من معجزات الإسلام . . يعمل ويعمل . . ولا ينسى الله ، ولا يفترق طريقه فى الأرض عن طريقه إلى الآخرة .

وبذلك كان الإسلام فذاً فى التاريخ . .

وكان البناء الذى بناه الإسلام فريداً بالرغم مما أصابه من ضربات من الداخل ومن الخارج على السواء .

لقد كان المسلمون يقتدون برسولهم وهو يحثهم على العمل لتعمير الأرض ، وغرس ما فى أيديهم من فسائل تثمر حين يشاء لها الله ، وإنما عليهم فقط أن يغرسوها ، ويمضوا إلى غيرها يغرسون فى مكان جديد ! ويقتدون به فيغرسون به ما يغرسون من نبتات الخير فى كل مكان ، وهم يتجهون إلى الله وحده وإلى الآخرة . لا تدفعهم مطامع الأرض المنبتة عن طريق الله ، ولا شهوات النفس المنبتة عن تقوى الله .

وبذلك تميزوا وسادوا ، وكانوا النور المشرق فى ظلمات الأرض ، والقدوة فى كل سلوك وكل عمل وكل علم وكل نظام . وأوربا فى ظلمة الجاهلية تأكلها الفرقة والحروب والتأخر والانحطاط . . حتى قبست قبسات من الإسلام فى الحروب الصليبية ، فأفاقت من غفوتها وبدأت « تنهض » . . ولكن على غير طريق الله وطريق الآخرة . . ومن ثم لا تقوم إلا كمن يتخبطه الشيطان من المس . . تنطلق كالمجنون والهوة فى آخر الطريق .

وإن أمام المسلمين الكسالى اليوم قدوة فى رسول الله تنفعهم إذا فتحوا لها بصائرهم وتدبروا معانيها . إن عليهم أن يعملوا دائماً ولا يكلّوا . . يعملوا جهد طاقتهم ، وفوق الطاقة ليعوضوا القعود الطويل . يعملوا فى كل ميدان من ميادين العمل : فى ميدان العلم وميدان الصناعة وميدان التجارة وميدان الاقتصاد وميدان السياسة وميدان الفن وميدان الفكر . .

يعملوا ولا يقولوا : ما قيمة العمل؟ وماذا يمكن أن نصل إليه ؟

يغرسوا الفسيلة ولو كانت القيامة تقوم اللحظة . فإنما عليهم أن يعملوا ، وعلى الله تمام النجاح !

* * *

والدعاة خاصة لهم فى هذا الحديث درس أى درس !

فالدعاة هم أشد الناس تعرضاً لنوبات اليأس ، وأشدهم حاجة إلى الثبات !

قد ييأس التاجر من الكسب ، ولكن دفعة المال لا تلبث أن تدفعه مرة أخرى إلى السير فى الطريق .

قد ييأس السياسى من النصر ، ولكن تقلبات السياسة لا تلبث أن تفتح له منفذاً فيستغله لصالحه .

قد ييأس العالم من الوصول إلى النتيجة . . ولكن المثابرة على البحث والتدقيق كفيلة أن توصله إلى النهاية .

كل ألوان البشر المحترفين حرفة معرضون لليأس ، وهم فى حاجة إلى التشجيع الدائم والحث الطويل ، ولكنهم مع ذلك ليسوا كالدعاة فى هذا الشأن ، فأهدافهم غالباً ما تكون قريبة ، وعوائقهم غالباً ما تكون قابلة للتذليل .

وليس كذلك المصلحون .

إنهم لا يتعاملون مع المادة ولكن مع « النفوس » والنفوس أعصى من المادة ، وأقدر على المقاومة وعلى الزيغ والانحراف .

والسم الذى يأكل قلوب الدعاة هو انصراف الناس عن دعوتهم ، وعدم

الإيمان بما فيها من الحق ، بل مقاومتها فى كثير من الأحيان بقدر ما فيها من الحق ، وعصيانها بقدر ما فيها من الصلاح !

عندئذ ييأس الدعاة . . ويتهاوون فى الطريق .

إلا من قبست روحه قبسة من الأفق الأعلى المشرق الطليق . إلا من أطاقت روحه أن يغرس الفسيلة ولو كانت القيامة تقوم اللحظة عن يقين !

* * *

الدعاة أحوج الناس إلى هذا الدرس . أحوج الناس أن يتعلموا عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا التوجيه العجيب الذى تتضمنه تلك الكلمات القليلة البسيطة الخالية من الزخرف والتنسيق .

هم أحوج الناس أن يقبسوا من قبسات الرسول هذه اللمحة المضيئة الكاشفة الدافعة الموحية ، فتنير فى قلوبهم ظلمة اليأس ، وتغرس فى نفوسهم نبتة الأمل ، كما تغرس الفسيلة فى الأرض لتثمر بعد حين .

إنه يقول لهم : ليس عليكم ثمرة الجهد ، ولكن عليكم الجهد وحده ، ابذلوه ولا تتطلعوا إلى نتائجه !

ابذلوه بإيمان كامل أن هذا واجبكم وهذه مهمتكم ، وأن واجبكم ومهمتكم ينتهيان بكم هناك ، عند غرس الفسيلة فى الأرض ، لا فى التقاط الثمار !

وهو إذ يقول لهم ذلك لا يغرر بهم ولا يضحك عليهم ! إنما يقول لهم الشىء الواحد الصواب !

فحين تسأل نفسك : متى تثمر الفسيلة وكيف تثمر ، وحولها الرياح والأعاصير والشر من كل جانب ؟

وحين يصل بك التفكير إلى أن تطرح الفسيلة جانباً وتنفض منها يديك . .

حينئذ كيف تثمر ؟ وأنّى لها أن تعيش ؟

أما قتلتها أنت حين أفلتّها من يديك ؟

ولكنك حين تغرسها فى الأرض وترفع يديك لله بالدعاء . . حينئذ تكون أودعتها مكانها الحق ، وعهدت بها إلى الحق الذى يرعاها ويرعاك .

ولا يشغلك أن تسأل : متى تكون الثمار ؟! ليس هذا من عملك أنت . لست مهيمناً على الأقدار. وليس لك علم الغيب . ولا فى طوقك ـ لو علمته ـ أن تمسك نفسك من الدوار !

ومن تكون أنت فى ملك الله الواسع الفسيح الذى لا حد له ولا انتهاء ؟!

وإنما أنت أنت : مخلوق حى متحرك له كيان وله وزن وقوة ومكان فى تاريخ الأرض ، حين تقبس روحك قبسة من صانع الأرض وصانع الكون ، وصانعك أنت من بين هذا الكون الكبير .

أفلا تدع له إذن مصيرك مطمئناً إليه ؟ أو لا تدع له كذلك هذه الفسيلة التى غرستها يرعاها لك ويطلع لها الثمار ؟! أو لاتكتفى بدورك المطلوب منك فى الملكوت الهائل الفسيح ، وتحمد الله أن لم يحمّلك سوى دورك هذا المحدود الميسور ؟!

وحين تصنع ذلك تطلع الثمار !

لا عجب فى ذلك ولا سحر !

وإنما أنت تؤدى دورك وتمضى ، فيجىء غيرك فيعجب بك وبما صنعت ، فيحبك ، فيذهب يتعهد فسيلتك التى غرست ، فتنمو ، وتطلع الثمار .

وقد تكون « سعيداً » بمقاييس الأرض ، فترى الثمرة وأنت حى فى عمرك المحدود .

وقد تمضى قبل أن ترى الثمار . .

ولكن أين تمضى ؟ هل تمضى لأحد غير الله ، إلى جوار غير جوار الله ؟

فماذا إذن عليك حين تصل إلى هناك ، أن تكون قد رأيت الثمرة هنا ، أو تراها وأنت هناك ؟ كلا ! إنهما فى النهاية سيان .

وإنما ترضى وأنت فى جوار ربك أنك غرست الفسيلة فى الأرض ولم تدعها من يدك يقتلها اليأس والإهمال .

* * *

ليست إذن دعوة فى الخيال حين يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس : إن كان فى يد أحدكم فسيلة فليغرسها .

وإنما هى صميم دعوة الحق . الحق الواقع فى الأرض ، المشهود على مدار التاريخ .

والدعاة فى كل الأرض أحوج الناس إليها حين تضيق بهم السبل ويصل إلى قلوبهم سم اليأس القتال .

وهم أولى الناس أن يتدبروا سيرة الرسول نفسه .

لقد كان يغرس الفسيلة وهو ما يدرى ما يكون بعد لحظات !

قد تأتمر به قريش فتقتله .

قد يهلك جوعاً فى الشعب هو ومن معه من المؤمنين .

قد يلحق به الكفار وهو فى طريقه إلى الغار فلا يكون ثمة غد . . أو تكون القيامة بعد لحظة . . ومع ذلك يغرس الفسيلة ، ويتعهدها بالرعاية حتى يؤذن الله بالثمار ، وهو مطمئن دائماً إلى الله ما دام يؤدى الواجب المطلوب .

ذلك هو المثل الذى يحتاج الدعاة إلى أن يقتدوا به حين يدعون إلى الإصلاح .

من كان فى يده فسيلة فليغرسها !

ولا يسأل نفسه : كيف تنمو وحولها الرياح والأعاصير والشر من كل جانب ؟

لا يسأل نفسه ، فليس ذلك شأنه . .

فليدع ذلك لله

ولتطب نفسه أنه أودعها مكانها الحق ، وعهد بها إلى الحق الذى يرعاها ويرعاه .

طَلَبُ العِلْم فَرِيضَة

«طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1] .

العلم . . هذا النور الذى يهدى الله به فى مسالك الأرض ، وينير لهم السبيل : « إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة »[2]

العلم . . تلك النافذة الضخمة المفتوحة على « المجهول » والشعاع النافذ إلى الظلمات .

العلم . . تلك الطاقة الهائلة التى يمد بها الإنسان حياته ، ويوسع كيانه ، فلا ينحصر فى ذات نفسه ، ولا ينحصر فى واقعه الضيق القريب ، ولا ينحصر فى جيله الذى يعيش فيه . بل لا ينحصر فى محيط الأرض . وإنما يشمل هذا كله ويزيد عليه ، فينفذ إلى الماضى ، ويحاول أن يفهم المستقبل على ضوء الحاضر، ويرقب الكون على اتساعه من خلال مناظيره ونظرياته . . وينطلق . . كما تنفلت « المادة » المحسوسة من نطاقها الضيق وتصبح شعاعاً يدور فى الآفاق . . « الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء . .

وبه يعرف الحلال من الحرام . وهو إمام العمل والعمل تابعه . . »[3]

---

(١) رواه ابن ماجه . (٢) رواه أحمد عن أنس بن مالك .

(٣) من حديث رواه ابن عبد البر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

العلم . . تلك المنحة الربانية العجيبة التى منحها الله للإنسان ، وكّرمه بها وفضّله . وهى إحدى معجزات الخلق . نمر بها غافلين لأننا تعودناها !

ولا نفتح أفواهنا من العجب ، ولا تخفق قلوبنا من البهر إلا حين يقع العلم على سر هائل من أسرار الكون ، أو يفتح باباً جديداً على المجهول . . مع أن المعجزة فى الصغير والكبير سواء ! كشأن « الحياة » تُعجز فى الخلية المفردة كما تعجز فى أعقد الأحياء !

هذا العلم . . لقد كان الإسلام حرياً أن يحتفل به ويعظمه ، وهو الذى يحتفل بطاقات الحياة كلها ويعظمها ، وهو الذى يوجه القلوب لكل منحة منحها الله ، وكل آية من آيات الله . .

ولقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرياً أن يحث على العلم ويرفع منزلته ، وهو الذى نزل عليه الوحى فعلمه : « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » فذاق حلاوة العلم ، وتفتحت له به الآفاق . ثم هو الذى يتلو من هذا الوحى :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » ![1]

ولكن التعبير الذى استخدمه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحث على العلم ، يظل عجيباً مع هذا كله ، وتظل له دلالاته الخاصة وإيحاءاته الخاصة ، وتوجيهاته التى لاتصدر إلا عن رسول ، وصول بالله ، واصل إلى حماه !

طلب العلم « فريضة » !

هذه الكلمة المفردة تشع وحدها أمواجاً من النور ، وتفتح وحدها آفاقاً من الحياة .

---

(١) سورة فاطر [٢٨]

فريضة . . فلننظر ما تعنى الفريضة فى قلوب المؤمنين .

إنها أولاً : واجب مفروض على الإنسان أن يؤديه . لا يجوز أن تشغله عنه المشاغل . ولا أن تقعده العقبات .

وهى ثانياً : واجب يؤديه الإنسان إلى الله ويتعبد به إليه ، ومن ثم فهو يؤديه بأمانة . ويؤديه بنظافة . ويؤديه بإخلاص .

وهى ثالثاً : عمل يقرب العبد إلى الرب ، فكلما قام الإنسان بهذه الفريضة ، أو بهذه العبادة ، أحس أنه يقترب من الله . فيزداد به إيماناً وتعلقاً ، ويزداد له خشية وحباً ، ويزداد إحساساً بالرضا فى رحابه ، والشكر على عطاياه .

تلك بعض معانى « الفريضة » فى القلب المؤمن . وتلك كانت معانى «العلم » فى نفوس المسلمين !

* * *

لم يشعر المسلمون قط أن الدنيا تنفصل فى إحساسهم عن الآخرة أو أن الدين ينفصل عن الحياة .

وبهذه الروح الشاملة الواصلة ـ التى وجههم لها الله ورباهم عليها رسوله ـ كانوا يأخذون شئون الحياة كلها ، من عمل وعبادة ، وأفكار ومشاعر ، وشريعة ونظام . .

. وبهذه الروح الشاملة الواصلة ذاتها كانوا يأخذون العلم . . على أنه «فريضة » تصل الأرض بالسماء ، وتصل العمل بالعقيدة ، وتصل «المعرفة» . . بالله .

كان للعلم فى « عقولهم » هذا المدلول الشامل . . فهو ليس علم الأرض

وحدها . وليس علم السماء وحدها . وليس علم النظريات وحدها أو علم التطبيقات . ولكنه ذلك كله ، مشمولاً بالعقيدة ومرتبطاً بالله .

ومن ثم امتدت « العلوم » فى نظرهم حتى شملت المعرفة كلها . فمنها علوم الدين من فقه وشريعة وتوحيد وكلام . ومنها علوم اللغة . وعلوم الفلك والطبيعة والكيمياء والرياضيات . . إلى آخر ما كان معروفاً يومئذ من العلوم .

ولم يكـن العرب ـ قبل الإسلام ـ أمة علم ، ولـم يكن تراثهم يحمل شيئـاً ذا قيمة من المعرفة . إنما كان همهم الشعر والبراعة اللغوية . . ولكن الهزة الجبارة التى أحدثها الإسلام فى نفوسهم ، والطاقة العجيبة التى جمعها فى كيانهم ، وأطلقها ـ من بعد ـ فى فجاج الأرض ، قد حولتهم إلى قوة هائلة تضرب فى كل ميدان . فى ميدان العقيدة . وميدان الحرب . وميدان السياسة . وميدان المعرفة كذلك .

لقد أحسوا بالرغبة الشديدة فى المعرفة تتأجج فى كيانهم : المعرفة من كل لون . وفى كل ميدان . فشرقوا وغربوا يطلبون العلم ، ويستحوذون على كل ما يجدون منه فى الطريق . ويتفتحون لذلك كله ، ويهضمونه ويمثلونه ويصبغونه بصبغتهم الإسلامية التى تربط الحياة كلها برباط العقيدة . ثم يضيفون إليه جديداً قيماً يشهد لهم بالجد والعزيمة ، كما يشهد بالبراعة والمقدرة ، والقوة والنماء .

كانت المعرفة فى وقتهم مزدهرة فى اليونان من ناحية ، وفى الهند وفارس من ناحية . كما كانت الصين كذلك زاخرة بالعلوم . وفى الحكمة القائلة : «أطلبوا العلم ولـو فى الصين » ما يشير إلى هذه الحقيقة ، وكان توجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمسلمين أن يبذلوا أقصى الطاقة فى سبيل العلم ، فنشطوا فى سبيل ذلك لا يبالون الصعاب .

وفى سرعة خاطفة ألم الإسلام بهذا كله ، وتفقه المسلمون فى معارف الأرض المعروفة فى ذلك الحين ، ثم أخذوا فى البناء والإضافة ، وظهر من بينهم حشد هائل من العباقرة فى كل جانب . عبقريات فى الفقه ـ والفقه يشمل الأسس النظرية للحياة كلها بما فيها من اقتصاد وسياسة وحرب وسلم وتنظيم اجتماعى ـ وعبقريات فى العلوم النظرية وفى العلوم العملية : فى الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والطب ، يحفظ منهم التاريخ أسماء خالدة ، دفعت بالمعرفة البشرية خطوات جبارة إلى الأمام . وظل بعضهم ـ كالحسن بن الهيثم ـ أستاذاً فى مادته وكشوفه العلمية حتى القرن التاسع عشر ، يتتلمذ عليه الأوربيون .

ولكن المهم فى ذلك كله هو « الروح » التى شملت العلم فى العالم الإسلامى . . روح « الفريضة » .

كانت التعاليم التى استقوها من الله والرسول هى التى تظلل حياتهم وتسيطر على مشاعرهم . وكانت المعرفة فى وجدانهم فريضة يؤدونها ، بدافع الفريضة وفى صورة الفريضة .

كان للعلم فى نفوس الناس قداسة كقداسة العقيدة . قداسة تشمل المعلم كما تشمل الطلاب . كلاهما يحس بالرهبة ، ويحس بالتقوى ، ويحس بالنظافة ، ويحس بالراحة والفرحة فى رحاب الله .

إنه واجب مقدس ، يؤدى « من الداخل » . يؤدى من الأعماق .

الأستاذ يحصّل العلم لأنه فريضة . ويؤديه إلى الناس لأن أداءه فريضة كذلك .

والطلاب يسعون إلى طلبه ، كما يسعون إلى المسجد للصلاة .

كلاهما مخلص وكلاهما نظيف .

والمحصول العلمي الذى خلفه أولئك المسلمون ـ سواء أعجبنا اليوم ونحن ننظر إليه بعقلية المعارف الحديثة أم لم « تتفضل » عليه بالإعجاب ـ محصول يشهد بالجهد الصادق العنيف الذى بذل فيه . .

لم يكن واحد يؤلف ليكسب ! يكسب الشهرة أو يكسب النقود ! وإنما يؤلف لأنه بحث وجد واستنبط ، فوصل إلى « شيء » فأذاعه على الناس .

و « الانقطاع » للعلم كان وحده دليلاً على هذا الصدق الذى لا تفسده الأغراض .

ولم يكن الصدق والإخلاص هما السمة الوحيدة فى « علم » المسلمين . فذلك لا يستنفد كل معانى « الفريضة » !

وإنما كانت هناك مزيتان أخريان ، تركتا طابعاً أصيلاً فى الحياة الإسلامية ما يقرب من ألف عام .

المزية الأولى أن العلم ـ وهو « فريضة » ـ كان يقرب القلوب إلى الله . . ولا يبعدها عن هداه .

نعم . . لم تحدث فى الإسلام تلك الفرقة البغيضة بين العلم والدين !

وكيف تحدث والعلم فريضة يتقرب بها الإنسان إلى الله ؟ كيف يتقرب إليه بالبعد عنه والنفور منه ؟!

كلا ! إن العلم نور الله . موهبته المعجزة التى وهبها للإنسان . وهى أولى بالشكر لا بالكفران !

وكذلك أحس المسلمون . أحسوا أن فى رقابهم ، ديناً لله يؤدونه . فهو قد وهب لهم « الحكمة » و « المعرفة » . وهب لهم العقل الذى يفكر ويكتشف ويستنبط . وهب لهم القدرة على الاستفادة من التجربة . وهب لهم ذلك الشعاع

العلوى الذى لم يكن ليوجد لولا أن الله نفخ فى الإنسان من روحه . . فعليهم لقاء ذلك دين . هو الشكر . الشكر لله المنعم الوهاب .

ومن ثم كان العلم يزيدهم إيماناً . ويزيدهم تعلقاً بالله :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلاً ! سبحانك ! فقنا عذاب النار! » [1]

تلك روح المؤمن الذى « يتعلم » . الذى يتفكر فى خلق السماوات والأرض . ويصل من تفكره ذلك إلى قوانين ونظريات وحقائق وتطبيقات ، تزيد « معلوماته » وتفيده فى تعميره الأرض وهو يمشى فى مناكبها ويأكل من رزق الله [2] فيدعوه ذلك كله إلى معرفة الله . ومعرفة « القصد » فى خلق السماوات والأرض . القصد « الحق » : « ما خلقت هذا باطلاً » فيسبح الله . ويتقرب إليه . ويتوقى النار ويطلب تحقيق وعد الله بالنعيم : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان : أن آمنوا بربكم ، فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » [3] .

ولم يحدث فى التاريخ الإسلامى أن عالماً يبحث فى الطب أو يبحث فى الفلك أو يبحث فى الطبيعة أو يبحث فى الكيمياء . . وجد نفسه معزولاً عن العقيدة ، أو وجد أن العقيدة تعطله عن البحث العلمى الدقيق ! ولم تقم

---

(١) سورة آل عمران [١٩٠ ـ ١٩١]

(٢) « . . . فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » سورة الملك [١٥]

(٣) سورة آل عمران [١٩٣ ـ ١٩٤] .

الحرب والخصومة فى قلب مسلم بين العلم والعقيدة أو بين العلم والدين .
وإنما عاش العلم فى ظلال العقيدة يتقدم وينشط ، ويصل إلى كشوف علمية هائلة ، أقر بها المتعنتون أنفسهم من علماء أوروبا ، دون أن يفترق الطريق لحظة أو يحدث الشقاق .

ذلك أن العلم كان « فريضة » إلى الله ، تؤدى كما تؤدى الصلاة والصيام والزكاة !

* * *

والمزية الثانية فى علوم المسلمين ـ الناشئة كذلك من كون العلم فريضة ـ أنها لم تستخدم قط فى الشر أو الإيذاء !

وكيف يستخدم العلم فى الشر وهو فريضة وعبادة ؟

« تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة »[1].

فأين ينبغ الشر فى هذا الطريق الذى تحفه خشية الله ، وعبادته ، وتسبيحه ، والتقرب إليه ؟

ولقد يخطر على البال أن علوم المسلمين لم تستخدم فى الشر لأنها كانت بدائية بسيطة لا تصلح للشر ، إذا قيست بطاقة الذرة وعلوم « التدمير » فى القرن العشرين !

والواقع ليس كذلك ! فإن علوماً أدنى من علوم المسلمين وأبسط ـ فى مصر الفرعونية وبابل ـ كانت تقدر على الشر وتستخدم فيه !

فقد استخدم الكهنة فى مصر القديمة ـ وكانوا فى الأغلب هم العلماء ـ

---

(١) رواه ابن عبد البر عن معاذ : الترغيب والترهيب ج١ ص ٥٨ رقم ٨ .

استخدموا معارف الكيمياء والطب والنجوم فى السحر ، والاستحواذ على الأموال بالباطل ، والتوصل إلى السلطان المطلق على القلوب والأرواح والأجسام والعقول ، والتحكم فى كل أمور الناس بالعبودية والإذلال .

وكانوا يستأثرون بهذا العلم لا يبيحونه للناس ، إيثاراً لأنفسهم بالنفع ، واستحواذاً على السلطان الكافر الذى يذلون به العبيد . . عبيد فرعون وعبيد الكهان ، وهم « الشعب » كله بلا تفريق .

ولو أراد المسلمون أن يستخدموا العلم للشر فلم تكن لتمنعهم بساطة علومهم ، ولا تعجزهم عن عمل السوء . .

أقرب الشر أن يصرفوا به القلوب عن الله .

وأن يضحكوا به على السذج والجهلاء فينالوا المال المتدفق وينالوا السلطان .

وأن يحبسوه عن العامة . .

وأن يتزلفوا به إلى الملوك والسلاطين . .

وأن يلتووا به ليبرروا مظالم السلطان .

وهذا هو التاريخ . . صفحة رائقة مشرقة مضيئة . . تشهد أن العلم الإسلامى لم يسع للشر ولم يستخدم للشر . بل أراد دائماً وجه الله وتوجه إلى الخير . ووقف فى مرات كثيرة أمام السلطان الجائر يطالبه بحق الله وحق الكادحين . .

ذلك أنه كان فريضة إلى الله ، يتقرب بها العلماء إلى حماه .

* * *

والآن نطوى تلك الصفحة المشرقة المضيئة لنطلع على صفحة أخرى . . صفحة الغرب .

أوربا هى وريثة الإمبراطورية الرومانية والثقافة الإغريقية. وما تزال حضارتها المادية وتياراتها الفكرية تستمد من هذين المنبعين، بشعور من الأوربيين أو بغير شعور.

وقد ورثت أوربا ـ فيما ورثته من تاريخها المبكر ـ طريقة إحساسها بالله واعتقادها فى الدين.

وينبغى أن نعرف أن أوربا لم تكن نصرانية حقة فى يوم من الأيام! على الرغم من انتشار المسيحية فيها، وتعصب الأوربيين لها فى الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش. وعلى الرغم مما لا يزال يرد على بعض الألسنة الغربية حين تتحدث عن «الحضارة المسيحية»!

كلا! لم تكن تطبق الدين الحق فى يوم من الأيام. وإنما كان قصارى المسيحية عندهم أن تلين لها قلوبهم فى المعبد، وتتأثر أرواحهم بأنغامها الشجية وسبحاتها الروحية المرفرفة، ولكنها لا تحكم الحياة العامة، ولا تحكم فى أمر هذه الأرض. فإذا خرج الناس من صلاتهم فى المعبد ارتدت عنهم روح الدين، وعادوا إلى الوثنية الرومانية الإغريقية القديمة، يستمدون منها أفكارهم ومشاعرهم، وتشريعاتهم وتنظيماتهم وكل حضارتهم المادية العريقة..!

وأياً ما كان الأمر فقد ظلت فى لا شعور الأوربيين ـ تحت القشرة المسيحية الرقيقة ـ تلك النظرة الإغريقية إلى الله، تؤثر فى وجدانهم نحوه، وتطبع احساسهم الدينى فى الأعماق.

فكيف كانت الأسطورة الإغريقية تصور الله.. أو الآلهة؟

لن نستعرض هنا الأساطير كلها، ولا الصورة الزرية التى كانت تعرض بها الآلهة، فتصورهم ـ على أحسن تقدير ـ بشراً فائقى القوة، ولكن نفوسهم مشحونة بالنزوات الطائشة والانحرافات النزقة التى يتورع عنها البشر

العاديون . . وإنما نستعرض أسطورة واحدة ذات دلالة فى موضوع « العلم » هى بروميثيوس سارق النار المقدسة !

هذه الأسطورة تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة صراع دائم وضغينة وأحقاد . علاقة لا ترف فيها مشاعر الرحمة أو العطف أو المودة . . ولا يهدأ أوارها حتى يشتعل من جديد .

والمعركة قائمة على النار المقدسة : نار « المعرفة » ! البشر يريدون أن يستولوا على هذه النار المقدسة ، ليعرفوا أسرار الكون كلها ، ويصبحوا آلهة ! والآلهة تردهم عنها فى وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وتتفرد دونهم بالسلطان !

تلك إذن هى طبيعة العلاقة بين البشر والله ! العلاقة التى اندست فى أوهام الأوروبيين ، وصارت تصرف أفكارهم ومشاعرهم بغير وعى . العجز وحده هو الذى يخضعهم لمشيئة الله ! وهم غير راضين عن هذا العجز ولا ساكتين عنه . فهم فى محاولة دائمة يطلبون « القوة » ويطلبون « المعرفة » . يحاولون دائماً أن يقهروا هذا العجز . أو يقهروا ـ بلغتهم ـ قوة الطبيعة . أو ـ بلغتهم اللاشعورية أيضاً ـ « ينتزعون » الأسرار ! ينتزعونها من الإله الوثنى القديم الذى كانوا يحاولون أن ينتزعوا منه ناره المقدسة !

وبهذا الدافع الخفى المطبوع فى أعماق النفس الغربية ـ فى أعماق اللاشعور ـ يحس الغربيون أن كل خطوة يخطوها « العلم » ترفع الإنسان فوق نفسه درجة ، وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر !

وتظل « المعركة » هكذا دائرة : كل فتح جديد من فتوحات العلم يخفض الإله ويرفع الإنسان ، حتى تأتى اللحظة المرقوبة التى يتحلب لها ريق الغرب ويتلهف إليها ، اللحظة التى « يخلق » فيها الإنسان الحياة ، ويصبح هو الله !

وليس هذا التعبير من عندنا نصور به أفكار القوم . فهو نص تعبيرهم ،

قاله جوليان هكسلى فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » . كما قاله غيره من العلماء الأوروبيين وهم ينددون بفكرة الله وفكرة الدين !

* * *

هذا الدافع الخفى المطبوع فى أعماق النفس الغربية كان خانساً لا شك تحت القشرة المسيحية التى ظلت تطبع النفوس الأوربية بضعة قرون . وما كادت القشرة تتفتت بفعل الصراع العنيف الذى قام بين الكنيسة وداروين ، أو بين الدين بمفهومه الرسمى وبين العلم ، حتى برز على السطح ما كان متوارياً من قبل ، وصار « العلماء » يجهرون بالعداوة السافرة ، ويتعمدون البعد عن الدين والعقيدة ، وينشرون هذه الآراء الكافرة التى تقول إن الإنسان هو الذى خلق الله ، وليس الله هو الذى خلق الإنسان !!

ومن أجل هذه الروح الوثنية فى حقيقتها ـ ولو تدينت فى ظاهرها ـ من أجل هذه الروح النافرة من العقيدة ، المستكبرة على العبادة ، نجد هذه المفارقة العجيبة بين الحسن بن الهيثم فى الإسلام وداروين فى أوربا . فبينما الحسن بن الهيثم وهو يكتب فى البصريات ـ فى موضوع علمى بحت جاف لا ترفرف حوله نداوة المشاعر ولا أنوار العقيدة ـ يبدأ حديثه باسم الله ، ويحمده ويطلب منه التوفيق ، نجد داروين ـ وهو يكتب عن « الحياة » و « الأحياء » و «التطور» ، عن موضوع يشهد بمعجزة الخلق ويكشف عن يد الخالق المبدعة فى كل خطوة ، ويستجيش الوجدان بالخشوع والعبادة ـ نجده ينفر من ذكر الله ، ويروح يستتر فى « الطبيعة » التى يقول عنها « إنها تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها ! » سبحان الله ! وما الله إذن إن كانت هذه هى الطبيعة ؟ وكيف تقسو القلوب حتى تمنع نفسها منعاً من ذكر الله بصريح لفظه وصفته فى هذا المقام ؟! ولا يكتفى بذلك ـ وهو واضح الدلالة ـ فتعمى بصيرته عن القصد

والتدبير فى خلق الخالق المدبر ، فيروح يصف إلهه الجديد الذى يسجد له ـ الطبيعة ـ بأنه يخبط خبط عشواء ! لغير شيء سوى أنه ـ وهو البشر المحدود الطاقة الضئيل العلم ـ لم يستطع أن يدرك كل أسرار الحياة !

وما نريد أن نظلمهم . . أولئك العلماء !

فربما كانت ظروفهم المحلية فى أوربا هى التى كفرتهم من الدين ! وربما كانت الوحشية البشعة التى كانت الكنيسة الأوربية تعامل بها العلماء من أمثال كوبرنيكوس وجاليليو ، فتعذبهم وتحرقهم من أجل نظرياتهم العلمية التى تخالف المعلومات « المقدسة » التى تتشبث بها الكنيسة . . ربما كانت هذه الوحشية هى التى أوجدت الخصومة والبغضاء بين « العلماء » والدين !

ولكننا نتبع فقط حوادث التاريخ . .

فمنذ حدثت هذه الفرقة العنيفة بين الدين والعلم فى أوربا . . منذ سار كل منهما فى طريق يخالف الآخر ويناصبه العداء . . شملت الغرب كله فلسفة مادية ملحدة كافرة ، لا تؤمن بالله ، ولا تحكّمه فى أمر من أمور الحياة ، وفى أمر العلم خاصة من بين كل أمور الحياة !

ومضت الموجة التى أطلقها داروين تأخذ آخر مداها . . فتجرف من طريق العلم كل التراث الإنسانى الخالد من عقيدة وأخلاق وتقاليد . .

وطلع إلى الوجود من بعد داروين فرويد وماركس يلوثان العقيدة ويصوران النفس الإنسانية صورة بشعة مليئة بالأقذار . . أقذار الجنس عند فرويد ، وأحقاد الصراع الطبقى عند ماركس .

وطلع علماء كثيرون . . . فى الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضة والطب . . يشتملون على عبقريات جبارة ، ويفتحون آفاقاً جبارة فى هذه العلوم . . ولكنهم ـ مع الأسف ـ يرفضون السير فى طريق العقيدة ويتنكبون ـ عن عمد ـ هداية الله !

لقد وعت أوربا جانباً من الدرس ، حين اختلطت بالمسلمين فى الأندلس ، ونقلت عنهم المعارف وطريقة الدراسة .

أخذت عنهم الجد والقصد والعزيمة . . والصبر والجلد والكفاح

أخذت عنهم احترام العلم والتوفر على البحث والإخلاص فى الدراسة .

ولكنها أبت أن تأخذ الله ، وتأخذ العقيدة .

ولقد وقعت الشعلة المقدسة ـ شعلة المعرفة ـ من أيدى المسلمين حين شغلتهم الفتن واللذائذ عن المضى فى الطريق . . فتلقفتها أوربا . وسارت بها قدماً . . خطوات جبارة فى كل ميدان . حتى فجرت الذرة وأطلقت طاقتها فى الفضاء . .

ولكنها لم تكن تسير فى طريق اللّه . لم تكن تأخذ العلم فريضة كما وصفه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فريضة تؤدى إلى الله ، ويتقرب بها الإنسان من حماه .

وإذ تخلى العلم عن الله فقد تلقفه الشيطان . . وسار به فى طريق الشر ، وأبعد فى طريق الضلال .

أول الشر أن العلم ـ منحة الله إلى الإنسان ـ يصبح أداة الكفر ، ويبعد الإنسان عن الله !

والعلم ـ النور الذى يهدى الإنسان إلى الحق ـ يصبح ذريعة الناس إلى الباطل ، فى كل منحى من مناحى الحياة ! فى البحوث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية والفكرية والروحية ، وكل بحث من البحوث !

والعلم ـ الذى « يعرف به الحلال والحرام » ـ يصبح أداة الفسق والخروج على الأخلاق ، بنظريات « علمية » تؤيد الفساد !

والعلم ـ طريق الإنسان إلى الخير البشرى ـ يصبح أداة التحطيم لهذه

البشرية ، يهددها بالموت المرعب كأبشع ما شهده الإنسان . . وما تزال تجربته « الصغيرة » فى هيروشيما ونجازاكى ماثلة فى الأذهان !

. . ذلك لأنه لم يعد « فريضة » . . وإنما مطية من مطايا الشهوات !

* * *

والمسلمون اليوم فى حاجة إلى حكمة رسولهم يتدبرونها ، ويتشربونها إلى الأعماق .

فى حاجة لأن يُرجعوا إلى العلم قداسته واحترامه . وقد صاروا يتلهون به فى عبث فاضح لا يليق بالبشر العاديين فضلاً عن المسلمين .

إنهم يأخذونه فى استخفاف العابث . . إن كانوا طلبة فى المدارس والمعاهد ، أو « أساتذة » يدرسون للطلاب ! غايته الوظيفة أو الكسب أو الشهرة من أقرب طريق . ووسيلته الغش والخداع والتلفيق !

إنهم لا يعطونه من الجد والعناية والاحترام حتى ما تعطيه أوربا الكافرة ؛ وهم أولى من الأوربيين بالتقاليد العلمية العريقة التى سار عليها جدودهم حين كانوا يعيشون فى ظل الإسلام ، ويستمدون من روح الإسلام .

لذلك هم فى حاجة لهدى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يردهم إلى احترام العلم وتقديره ، ويعيدهم لروح الجد والإخلاص .

وهم فى حاجة إليه كذلك ليعيدوا السلام للقلب البشرى الممزق بين الدين والعلم ، والدين والحياة ، الغارق من جراء ذلك فى تيار الشر والضلال ، وهم ـ وحدهم ، حين يؤمنون بالله ويؤمنون بأنفسهم ـ الذين يستطيعون عقد السلام فى ذلك القلب ، بعقيدتهم الفريدة التى توحد طريق الدين وطريق العلم . . بل توحد السماء والأرض ، وتصل العمل بالعبادة والدنيا بالآخرة : وتصل المعرفة بطريق الله .

قَبْلَ أن تَدعوا فَلَا أجيبْ

عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل علىَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرفت فى وجهه أن قد حضره شىء ، فتوضأ وما كلم أحداً ، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول ، فقعد على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : «يأيها الناس . إن الله يقول لكم : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم ، وتسألونى فلا أعطيكم ، وتستنصرونى فلا أنصركم » . فما زاد عليهن حتى نزل . رواه ابن ماجة وابن حبان فى صحيحه [1]

* * *

يا ألله ! أوحقاً يدعو الناس فلا يستجيب الله لهم ؟ الله الذى يقول : وسعت رحمتى كل شىء ؟ الله الذى يقول : وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » ؟

هل يمكن أن يحدث ذلك ؟

صدق الله . وصدق رسوله . وما يمكن أن يكون ذلك إلا حقاً !

وإنه لحق ترتجف له النفس فرقاً ويقشعر الوجدان رعباً .

وماذا يبقى للناس إذن ؟ ماذا يبقى لهم إذا أوصدت من دونهم رحمة الله ؟ ولمن يلجئون فى هذا الكون العريض كله وقد أوصد الباب الأكبر الذى توصد بعده جميع الأبواب . . ويبقى الإنسان فى العراء . العراء الكامل الذى لايستره

---

(١) الترغيب والترهيب . ج ٤ ص ١٢ رقم ٢٩ .

شيء ، ولا يحميه شيء من لفحة الهاجرة وقسوة الزمهرير ؟

ألا إنه الهول البشع الذى يتحامى الخيال ذاته أن يتخيله . . لأنه أفظع من أن يطيقه الخيال .

الخيط الذى يمسكه بالقدرة القاهرة القادرة قد انقطع . . فراح يهوى . يهوى إلى حيث لا يعلم أحد ولا يلاحقه خيال . يهوى فى الظلمات . يتقلب على الدوام . يصطدم فى كل شيء . يتحطم . . تتمزق أوصاله . . يتناثر فى كل اتجاه . . وكل « جزء » من نفسه يذوق من الآلام ما لا يطيق : « فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » (١) .

ذلك هو المخلوق البائس الذى يدعو الله فلا يجيبه ، ويسأله فلا يعطيه ، ويستنصره فلا ينصره .

فهل كتب الله ذلك الهول البشع على عباده ـ المسلمين ـ الذين يدعونه ويسألونه ويستنصرونه ؟!

نعم . . حين يكفون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . ولو بأضعف الإيمان .

* * *

لقد اقتضت إرادة الله أن يكون الإنسان خليفة فى الأرض .

واقتضت إرادته كذلك أن يكون الإنسان ـ الذى يستمد قوته من الله ـ هو القوة الفعالة فى هذا الوجود .

« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض » (٢) .

---

(١) سورة الحج [٣١]   (٢) سورة الجاثية [١٣] .

الإنسان هو الذى يعمل . والإنسان هو الذى ينتج . والإنسان هو الذى غير الواقع ، والإنسان هو الذى ينشئ النظم ويقيم الأوضاع .

الإنسان هو القوة الإيجابية فى الأرض ، فى ذات اللحظة التى يسلم كيانه كله لله . بل من هذا الإسلام الكامل لله ، يستمد الإنسان طاقته الإيجابية كلها على الأرض ! « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه »[1]

لقد اختار الله أن يكون الإنسان هو أداته العاملة فى الأرض . « سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » وعلى ذلك جرت سنته منذ خلق الأرض والإنسان .

والله سبحانه وتعالى ليس « مقيداً » بسنته على النحو الذى يتصوره العقل الغربى الجاحد الضيق المغلق البصيرة ، وهو يتحدث عن « القوانين الطبيعية » وحتميتها التى لا يمكن أن تتغير . . ومن ثم ينكر المعجزات !

كلا ! ليس الله مقيداً بسنته ولا محكوماً بها ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً . والدليل أنه يصنع الخوارق والمعجزات حين يريد ، وفق حكمته التى يعلمها وحده ولا يطلع عليها أحداً من خلقه .

ولكن مشيئته سبحانه هى التى اقتضت أن تسير الأمور على هذه السنة ، حتى يعرف الناس النتائج حين يعرفون الأسباب ، فيسيروا فى الأرض على بصيرة ، حتى وهم لا يعلمون الغيب المحجب عن الأبصار .

وكان ذلك رحمة بالناس وهدى لبصائرهم .

فعلى أساس هذه السنة الثابتة ـ التى شاءت إرادة الله الحرة القادرة أن تكون

---

(١) انظر « السلبية والإيجابية » فى فصل « خطوط متقابلة فى النفس البشرية » من كتاب «منهج التربية الإسلامية » .

ثابتة ـ يستطيع الناس تفهم الكون من حولهم ، والتعرف على أسراره ، والتوفيق بين أنفسهم وبين الكون والحياة .

وكل « العلم » الذى علمه الناس منذ البدء حتى اليوم ، وكل المخترعات التى اخترعوها ، وكل الفوائد التى جنوها ، والخدمات التى حصلوا عليها لم تكن لتوجد لولا ثبوت السنة واطرادها وعدم تخلفها .

وكذلك الحياة الإنسانية فى محيطها الشامل . . فكل النظم القائمة على تجارب البشرية : النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية . . لم تكن لتقوم لولا ثبوت هذه السنة واطرادها . فهذا وحده هو الذى يجعل للتجربة قيمة ، ويجعلها مجالاً للفائدة ومحلاً للاعتبار .

وإلا فما قيمة التجارب ـ علمية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية ـ إذا كانت كل تجربة منقطعة عن غيرها ، قائمة بذاتها ، لا تتصل بشىء ولا تنتهى إلى شىء ؟ وكيف يتعلم الناس أن هذا ضار وهذا نافع ، فيعرضوا عن الأول ويقبلوا على الأخير ؟

هى رحمة الله إذن بالناس أن يجعل لهم سنة ثابتة ، ويجعلها واضحة ، ويجعلها محلاً للعبرة ، ويوجه إليها الضمائر ، ويوقظ لها القلوب :

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين »[1]

* * *

وقد اقتضت هذه السنة ـ كما قلنا ـ أن يكون البشر هم أدوات العمل فى الأرض وهم كذلك أدوات التغيير :

---

(١) سورة آل عمران [١٣٧ ـ ١٣٨] .

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1]

ولن يعجز الله سبحانه أن يغير ما بالقوم دون أن يغيروا ما بأنفسهم . فالسماوات والأرض ومن فيهن ملكه . وهو القاهر فوق عباده . وهو المتصرف وحده فى الجميع بما يشاء وكيفما يشاء .

ولكنه هكذا شاء . . أن يكون الإنسان عنصراً إيجابياً فى الحياة . وأن يكون التغيير ـ وهو إرادة الله ـ مرتبطاً بإرادة الإنسان ، مقضياً عن طريقه ، نافذاً من خلاله ، ممتزجاً بكيانه كله من عمل وفكر وشعور .

والحمد لله من الإنسان أن جعل له كل هذه القيمة فى الأرض . . وإلا فما هو فى ذاته لولا هذا العطف الربانى عليه ؟ لولا تلك النفخة الإلهية التى جعلت منه ما هو عليه . أليس هو من طين هذه الأرض ، يستوى فى ذلك مع الصرصار الحقير والوحش الكاسر والحيوان البهيم ؟

ولكن لهذا التكريم تبعاته ومقتضياته . .

تبعاته أن يكون الإنسان قوة إيجابية حقاً ، وأن يعمل بمقتضى ذلك فى واقع الحياة .

تبعاته أن يعمل ، وأن يكافح ، وأن يصارع ، ولا يسلّم ، ولا ينخذل ، ولا يستكين .

تبعاته أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويؤمن بالله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[2].

---

(١) سورة الرعد [١١] .

(٢) سورة آل عمران [١١٠] .

تبعاته إذا رأى المنكر أن يغيره . . بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه . . فإن لم يستطع فبقلبه . . وهو أضعف الإيمان .

* * *

وليس المعروف أو المنكر شيئاً محدوداً فى هذه الأرض ، أو ميداناً دون ميدان .

كل شأن من شئون الناس ، كبر أو صغر ، يمكن أن يجرى بالمعروف ويمكن أن يجرى بالمنكر . وتبعات الإنسان تستلزم ملاحقته لهذه الشئون كلها، والرقابة عليها ، والتأكد من جريها بالمعروف وبعدها عن المنكر ! وإلا . . فالنتيجة هى الفساد !

تلك أيضاً هى سنة الله . فقد اقتضت سنته أن يراقب الناس شئون الأرض، ويدفع بعضهم بعضاً إلى الصلاح والرشد ، وإلا فسدت الأرض : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »[1] .

وإنها لتبعة ثقيلة تنوء بحملها الأكتاف . . ولكنها كذلك هى السبيل الأوحد لانتظام الأمور ، فحين يؤدى كل إنسان واجبه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ مع الإيمان بالله ـ لا يجرؤ الباطل أن يعيش ، ولا يجرؤ المنكر أن يستأسد . ويظل الحق هو القوة الغالبة الفعالة التى تسيطر على الأمور .

أما حين ينام عن هذا الواجب المقدس فالشر يغرى ، والشر يهيج ، والشر يسيطر على الحياة .

وقد جرت سنة الله بذلك فى التاريخ . .

---

(١) سورة البقرة [٢٥١] .

أيما أمة حية متيقظة ، ترقب شئونها بنفسها ، وتحرص على أداء كل واجب ، وتنفر من كل تقصير ، فهى الأمة الناجحة ، وهى التى تملك السلطان .

وأيما أمة تراخت وأهملت ، وتركت الباطل يسيطر على شئون الناس فلم تنصره ، فهى الأمة الفاشلة ، وهى الأمة التى حل بها الدمار .

وقوة المجتمع وضعفه رهين بهذا وذاك .

فالمجتمع الذى يتناصح الناس فيه بالخير ويتناهون عن المنكر ، هو المجتمع المترابط المتساند القوى ، الذى يتقدم إلى الأمام حثيثاً ، وينتقل من خير إلى خير ، بحكم تضافر الطاقة وتوجهها إلى الإصلاح . والمجتمع الذى يأتى المنكر فيه كل إنسان على مزاجه ، ويتركه الآخرون لما يفعل ، هو المجتمع المفكك المنحل ، الذى يمضى إلى الوراء حتماً ، وينتقل من ضعف إلى ضعف ، بحكم تبدد الطاقة وانصرافها إلى الشر .

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . »(1)

وكذلك لعن الغرب فى التاريخ الحديث .

أما المسلمون الأوائل ، الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس ، والذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ، فقد كانوا أمة قوية قاهرة غلابة . أمة متينة البناء وثيقة الأساس . أمة استطاعت أن تكافح كل قوى الشر وتعيش . تكافح الحكومات الظالمة من داخلها ، والغزاة البرابرة من خارجها، من التتار مرة والصليبيين مرة . . وتصمد لهذا الشر كله وتتغلب عليه .

---

(1) سورة المائدة [٧٨ ـ ٧٩] .

فلما كفوا . . لما تعبوا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . لما عادوا لايتناهون عن منكر فعلوه . . جرت عليهم السنة الأبدية الخالدة التى بينها لهم الله وحذرهم منها . . فصاروا فتاتاً متهاوياً تلتقمه قوى الشر من الداخل والخارج على السواء .

ولقد يبدو لأول وهلة أن العالم الإسلامى قد ضعف وهان واستُعمر لأنه غرق فى الجهالة والتأخر والانحطاط والجمود . ولأنه انقسم على بعضه فتنازعته الأحقاد . ولأن حكامه الطغاة كانوا مشغولين بلذائذهم عن أن يلتفتوا لإصلاح الشعب . ولأن المظالم الاجتماعية والاقتصادية قسمت الناس إلى طغمة ظالمة من الملاك تملك كل شىء ، وعبيد من الشعب لا يملكون شيئاً غير الذل والفقر والهوان . ولأن القوة الحربية والإنتاجيةللعالم الإسلامى تضاءلت وانحسرت بينما كانت أوربا تصعد فى كل ميدان . .

وإنه لكذلك حقاً وصدقاً . . ولكن ما ذاك ؟ ما هو فى حساب الحقائق إلا السكوت عن المنكر وعدم الأمر بالمعروف ؟!

ألم يأمر الله بالعدل : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » [1]

وعدم السكوت للظلم : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » [2] ولكنهم تركوا حكامهم يظلمونهم واستكانوا لهم فلم يغيروا عليهم؟

ألم يأمر الله بإعداد العدة واستحضار القوة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » [3] ولكنهم سكتوا عن الاستعداد وضعفوا واستكانوا ، ولم يطالبوا

---

(١) سورةالنساء [٥٨] . (٢) سورة النساء [٩٧] .

(٣) سورة الأنفال [٦٠] .

بالجهاد فى سبيل الله ولم يتجهوا إليه ؟

ألم يكرم الله العلم : « اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم »[1] وحض عليه رسوله : « طلب العلم فريضة »[2] فلم يسعوا إلى العلم وغرقوا فى الجهالة ؟

ألم يأمر الله بألا يكون المال « دولة بين الأغنياء منكم »[3] فتركوه دولة بين الإقطاعيين ولم يثوروا عليهم إحقاقاً لكلمة الله فى الأرض ، وإحقاقاً للعدل الذى أمر به الله ؟

ألم يأمر الله الرجال أن يعاشروا النساء بالمعروف « وعاشروهن بالمعروف »[4] فعاشروهن بالظلم وأجحفوا بحقوقهن ، وتركوهن طعمة للجهل وانزواء الشخصية وضآلة الكيان ـ وهن صانعات الطفولة ـ فخرجت من بين أيديهم أجيال من البشر هابطة الأنفس محدودة الآفاق ضئيلة الإنسانية ؟

فأى معروف أمروا به وأى منكر نهوا عنه ، وأى إيمان بالله ؟

عندئذ جرت عليهم سنة الله . . وغضب عليهم الله . . فاستعبدوا وهم الأعلون لو كانوا مؤمنين : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»[5].

* * *

تلك سنة الله . . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . أو يدعونه فلا يستجيب لهم ، ويسألونه فلا يعطيهم ، ويستنصرونه فلا ينصرهم . .

---

(١) سورة العلق [٣ ـ ٥] .
(٢) انظر الفصل السابق بهذا العنوان .
(٣) سورة الحشر [٧]
(٤) سورة النساء [١٩] .
(٥) سورة آل عمران [١٣٩] .

لأنهم ـ شاءت حكمته ذلك ـ هم أدوات الله فى الأرض . وعن طريقهم ينفذ الله أمره . كذلك اقتضت سنته : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » لا عجزاً من الله ـ سبحانه ـ عن التغيير بغير تلك الأدوات ، أو بغير أدوات على الإطلاق، ولكن تكريماً لهذا الخليفة فى الأرض، ومنحَه حرية التصرف وحرية السلوك .

وحين نفهم هذه السنة نفهم ذلك الحديث الذى نطق به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فإذا كانت الأدوات جاهزة للعمل، متوجهة إليه ، متوفرة له . . فإن السنة تمضى ، والعمل ينفذ ، والإصلاح يتم .

وإذا كانت الأدوات معطلة أو فاسدة . . فإن السنة تمضى كذلك فى طريقها . تمضى بالابقاء على الفساد ، والزيادة فيه ، وعدم التغيير عليه ، وعدم الإصلاح فيه .

وعندما يدعو الناس وهم قاعدون عن العمل ، وحين يسألون وهم كسالى، وحين يستنصرون وهم لا يعدون عدة النصر . فعند ذلك لا يستجيب الله لهم ولا يعطيهم ولا ينصرهم . .

لأنهم لا يستحقون النصر . .

وكيف يستحقون وهم قاعدون ؟!

وكيف يثبتون عليه لو منحهم الله إياه ؟!

هب أن الله غير سنته ـ سبحانه ـ فأنزل عليهم النصر وهم قاعدون . أَوَ يحفظونه ؟ أيدوم لهم ؟ وكيف يحفظونه وهم فاسدون مفسدون ، متهالكون

متهاوون ، لا قدرة لهم ولا عزيمة ولا دراية بأمر من الأمور ؟

من أجل ذلك لا ينصرهم . « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[1] .

إن طريق النصر والاستنصار واضحة . إن الله قد اختار أن يكون الإنسان هو أداته المنفذة فى الأرض ، حين يستقيم إلى الله ، ويهتدى إليه ، ويعمل من أجله ، ويحبه ويخشاه .

فمن أراد النصر، من أراد أن يدعو الله فيجيبه، ويسأله فيعطيه فليكن حيث يريده الله ، وحيث يُنْزِل عليه نصره وعطاءه فينفع النصر ، وينفع العطاء .

وطريق الله واضحة . والنصر والعطاء من هذا الطريق وحده . فمن أراد النصر فليسر فى الطريق وليمض قدماً . فإنه ملاق وعد الله الحق . ولا يخلف الله وعده . أما إن هجر الطريق الأوحد ، وراح يتسكع فى كل طريق غيره ، فمن أين يصيبه النصر ، وهو منصرف عنه ومولِّيه الأدبار ؟

* * *

ولقد وعت أوربا جانباً من سنة الله فى الأرض ـ الجانب الذى نسيه المسلمون اليوم . ونسيت منها جانباً آخر ـ الجانب الذى وعاه المسلمون !

ولقد وعت أوربا أن الإنسان هو القوة الفعالة فى الأرض . وأن الطاقة البشرية هى أداة الإصلاح . من أجل ذلك اتجهت همتهم لتجنيد هذه الطاقة ، وتوجيهها إلى العمل المنتج فى واقع الحياة .

ووصلوا فى ذلك إلى درجة معجبة من النشاط والتنظيم والدأب المنتج العجيب .

---

(١) سورة العنكبوت [٤٠] .

ذلك ما نسيه المسلمون اليوم وهم يتواكلون ويتقاعسون ، وينتظرون وهم قاعدون .

ولكن أوربا نسيت الله !

نسيت أن تعمل فى سبيله ، وتعيش فى سبيله ، وتنتج فى سبيله .

ومضت بطاقتها الإنتاجية الضخمة فى سبيل الشيطان .

ومن ثم قام هذا الصراع الرهيب الذى يوشك أن يدمر وجه الأرض .

والمسلمون يعرفون الله . .

ولكنهم يعرفونه فى ظاهر قلوبهم ولا يحفظونه : « احفظ الله يحفظك [1]» .

يعرفونه ولا يأتمرون بأمره ولا ينتهون بنهيه ولا يعملون فى سبيله ، ويشركون به كثيراً من قوى الأرض المادية أو البشرية سواء . « وما قدروا الله حق قدره » وما عبدوه حق عبادته . ومن ثم فهم لا يسيرون بعد على الطريق .

وقد اقتضت سنة الله أن من يعمل ويجتهد يصل إلى شىء . . وإن كانت سنته قد اقتضت كذلك أنه يضيع هذا الشىء فى النهاية ما لم يسر فى الطريق الذى رسمه الله . وهو ما يوشك أن يحدث فى الغرب اليوم .

ولكن من لا يعمل لا يجد على الإطلاق . . ولو كان ـ نظرياً ـ يعرف الله ويدعوه ويسأله العطاء !

والمسلمون هم المكلفون أن يهدوا البشرية الضالة إلى الطريق : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا [2]» .

---

(١) حديث رواه الترمذى .

(٢) سورة البقرة [١٤٣] .

ولن يهدوا الناس حتى يهتدوا هم أولاً إلى الله ويسيروا على الطريق .

والطريق معروف كما رسمه الله : « إن الله يقول لكم : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب . . . »

لا تفكّروا في ذاتِ الله [1]

سبحانه ، وهل يطيق بشر أن يفكر فى ذاته ؟

هل تطيق الذرة الهائمة التائهة الفانية المحدودة أن تحيط بحقيقة الأزل والأبد ، التى لا آخر لها ولا حدود ؟!

وإن اهتدت . . إن وصلت واتصلت بالله . . فما حاجتها إلى « التفكير » فى ذات الله وهى واصلة إلى حماه ؟!

وهل فرغ الإنسان من تدبر أسرار الكون ، ليفكر فى ذات الخالق سبحانه ، ليس كمثله شىء ؟

هل وصل فى « علمه » إلى حقيقة جوهرية واحدة من حقائق الكون ؟ أم إنه ما يزال فى محيط « الظواهر » لا يجرؤ على الدخول فى الأعماق ؟

لقد دفعه الإقدام مرة فتقدم فحطم الذرة وكاد يصل إلى المجهول . . ولكنه فجأة تراجع . . من هول الانفجار !

لم يكن تفجر الذرة وانطلاق طاقتها الهائلة المروعة هو الذى أصابه بالذعر وأصابه بالذهول ! وإنما كان « الكشف » الجديد الذى وصل إليه ، فأعاده إلى حيث كان من أسرار الوجود .

لقد اكتشف أنه ليس ثمة « مادة » ، وإنما هناك « طاقة » ، وأن هذه الطاقة هى « المجهول » الذى بحث عنه ألوفاً من السنين أو ملايين ، ثم عاد من حيث بدأ ، لم يزد علماً إلا بظواهر الأشياء .

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » .

الأشياء الموجودة فى الكون لا يعرف الإنسان « ذاتها » . لا يعرف جوهرها . وإنما يعرف من صفاتها ومظاهرها .

فأى قفزة فى الفضاء مجنونة تلك التى تدفعه إلى أن يترك الأشياء المخلوقة المحدودة الصغيرة ، التى يعجز عن معرفة ذاتها ، فيحاول أن يحيط بالذات الإلهية ، ويصل إلى « حقيقتها » ؟ !

خبل لا يستقيم مع التفكير السليم .

فأبسط قواعد « المنطق » أنك إذا عجزت عن الصغير فأنت أعجز عن الكبير . وإذا عجزت عن أن تسير ميلاً فستهلكك مئات الأميال فضلاً عن الألوف والملايين .

والكون أمام الإنسان واسع هائل عريض . .

فهل فرغ من أمره ؟ هل وصل إلى آخر أبعاده ؟ هل أحاط به علماً ، بل تصوراً وخيالاً ؟

فلنسمع هنا كلام العلم الرسمى فإنه وحده يبهر الخيال ويذهل الرءوس !

« إن أقرب نجم إلينا يبعد عن الشمس فوق الأربع من السنوات الضوئية . أى أن النور ، وسرعته ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية ، يقطع المسافة من الشمس إلى أقرب نجم فى نحو أربع سنوات . إنه على مسافة تبلغ نحواً من ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٢٦ ميل . إنك لو مثلت الشمس بنقطة من حبر على هذه الصحيفة ، لتمثل أقرب نجم بنقطة أخرى تبعد عن النقطة الأولى بنحو ٤ أميال »[1] .

« المجرة قرص عظيم . وهى قرص مفرطح ، كالرغيف . . . وقطر القرص

---

(١) عن كتاب « مع الله فى السماء » تأليف الدكتور أحمد زكى .

نحو من ۱۰۰,۰۰۰ سنة ضوئية. والسنة الضوئية مسافة مقدارها ٦مليون مليون ميل . فقطر هذا القرص نحو من ٦٠٠ ألف مليون مليون ميل. وارتفاعه نحو عشر ذلك »[١].

وهناك مجرات أخرى كثيرة فى الكون غير المجرة التى تتبعها مجموعتنا الشمسية .

« هذه الدنييات ، التى تشبه مجرتنا . . كم عددها ؟ مائة ؟ ألف ؟ ألفان ؟ لا . إنها مائة مليون من المجرات . مائة مليون جزيرة فى فضاء هذا الكون الواسع وقد تزيد » !![٢]

هذا فى « المحيط الخارجى » للكون . وهو مظهر واحد يعجز عن حمله الخيال وتعجز العقول .

فلننظر فى الأرض وحدها . تلك الذرة الهائمة فى الفضاء . هباءة منثورة فى محيط الكون ، لا تمسكها إلا القدرة القادرة الخالقة المبدعة .

كم جبلاً بها وكم نهراً وكم بحراً وكم بحيرة ؟! كم كهفاً فى جبالها وكم حفرة فى أراضيها ؟ كم نقطة من المطر تهبط إليها وكم ذرة من البخار تصعد منها آناء الليل وأطراف النهار ؟

وكم بها من أنواع الحياة ؟ الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية ؟

كم ألفاً من صنوف النبات على وجه الأرض ؟ وأى دقائق تفرق بين نبات ونبات مختلف ألوانه « يسقى من ماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل»؟

---

(١) و (٢) عن كتاب « مع الله فى السماء » تأليف الدكتور أحمد زكى .

وكم ألفاً من صنوف الحيوان والطير والحشرات فى السهول والفياف والقفار والوديان والغابات ؟

وكم مليونا من البشر من مختلف الألوان واللغات والعقائد والأفكار ؟

بل النبات الواحد والحيوان الواحد والإنسان الواحد . . كم فيه من معجزات الخلق ؟

الزهرة الواحدة البديعة التناسق المعجزة التلوين . هل يفرغ الإنسان من تأملها ؟

إن أمهر المصورين وأقدر الرسامين ليعجز عن الإحاطة « بالفن » الذى تمثله زهرة واحدة من تلك الزهور .

فإن ما فيها من تعداد الألوان ، وتدرجها ، وتناسقها ، وما فيها من جاذبية للعين والحس ، زائداً كله عن عنصر الضرورة الذى يستلزم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ولا زيادة . . إن هذا كله لآية تبهر النفوس .

و« التخصص » الذى يميز عضواً من عضو فى كيان النبات الجذر والساق والأوراق والزهور . . وكلها من حبة واحدة تبدو للعين شيئاً واحداً لا تخصص فيه ولا تمييز !

وعملية التمثيل الضوئى التى تحول « طاقة » الشمس إلى « مادة » !

وتوزع النبات على سطح الأرض بحسب توزيع الحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة . . بل بحسب توزيع النور والظلام ! فقد أثبت العلم أن « اختلاف الليل والنهار » بمعنى انتظام دورتهما التى يخلف فيها أحدهما الآخر ، وبمعنى اختلاف طولهما كذلك . . هو الذى يوزع النبات على سطح الأرض ! فلكل نبات زهرة . والزهرة تتكون فى فترة الإظلام لا فى فترة النهار ! وكل زهرة تحتاج إلى فترة معينة من الظلام حتى تطلع ! ومن ثم تتوزع أنواع النبات على أطوال الليل والنهار بحسب حاجة كل زهرة إلى الظلام ! وإذا أخذت نباتاً يحتاج إلى

ظلمة اثنتى عشرة ساعة لكى يزهر ، وزرعته فى مكان ليله لا يزيد عن عشر ساعات ، فإنه قد ينبت ، ولكنه لا يزهر ، ومن ثم لا يصل إلى الإثمار !

والحيوان الواحد كم فيه من موافقات عجيبة ومعجزات ؟!

الحواس وحدها معجزة . والجلد والشعر معجزة . والأنياب والأظافر معجزة . وجهاز الهضم والتنفس والإنسال كلها معجزات .

كل عضو مخصص لوظيفة . وهى كلها فى الأصل بويضة واحدة أو حيوان منوى ـ فى رأى العين ـ غير مميز الأجزاء .

والإنسان . . قمة الحياة على سطح الأرض وسيد المخلوقات فيها . . كم معجزة فى خلقه ؟

ودعك من خواصه « الحيوانية » كلها ، وإن كان فى كل منها ما يحير العقل ويذهل الفكر ، من شدة الدقة وعجيب التناسق وعظمة القدرة التى تهيئ لكل خلق ما يصلح له وما يعينه على أداء وظيفته .

ودعك من أن هذه الخصائص التى يشترك فيها مع الحيوان قد ارتفعت فى الإنسان وصارت أروع وأعجب وأدق وأكمل .

وانظر فى خصائصه التى تفرد بها وتميز على كل الخلق . انظر إلى عقله وانظر إلى روحه . أى إعجاز . أى إعجاز !

ما العقل ؟ كيف يفكر ؟ كيف يصل إلى الحقائق ؟ كيف يرتب بعضها على بعض ويستنبط بعضها من بعض ؟

وما التفكير ؟ كهرباء هو أم مادة ؟ أم طاقة ؟ وكيف تميزت عن الطاقات الأخرى كلها وتفردت عنها ؟

وما الروح ؟ ذلك المجهول ؟

كيف يتسنى للإنسان الضعيف القوة ، المحدود الطاقة ، المحدود مد

الحواس ، أن يتصل بالمجهول الأعظم ويقبس منه قبسات ؟

كيف يحدث التليباثي (التخاطر من بعد) كما حدث لعمر بن الخطاب حين صاح يا سارية الجبل ! وسمعه سارية على بعد ألوف الأميال ؟

كيف يحدث الحلم التنبئي الذي يكشف جانباً من المجهول الذي لم يحدث بعد في محيط الحواس ؟

بل كيف يحدث « المعلوم » من حب وكره ، ونسيان وتذكر ، وخصام وألفة ، ونثر وشعر ، وعمل وتفكير ؟

* * *

بل نرجع إلى الوراء خطوة لنسأل :

ما تلك القوة العجيبة الكامنة في البذرة ، فإذا هي تنمو ، وإذا هي تخرج شطئاً ينفذ من باطن الأرض بقوة ليظهر على السطح ، ثم يطول ويورق ويزهر ويثمر ثم يموت ؟

وما تلك القوة العجيبة الكامنة في البويضة والحيوان المنوى ، فإذا لقاؤهما المعجزة الكبرى التي تنشئ الحياة ؟

بل ما تلك القوة الكامنة في الخلية الحية . الخلية المفردة الواحدة التي بدأت الحياة منها على سطح الأرض ؟

بل ما تلك القوة العجيبة الكامنة في الخلية الجامدة أو التي تخال جامدة في « الذرة » المجسمة في المادة ، أو المنطلقة في الإشعاع .

هل يعرف الإنسان ما تلك القوة أو يملك أن يصل إلى الأسرار ؟

* * *

ذلك مبلغ الإنسان من « العلم » ومبلغه من « الحقيقة » .

ومع ذلك لا يعرف قدر نفسه ، ويروح يشطح فى الآفاق .

يريد أن يعرف « الحقيقة » الكبرى . يريد أن يحيط بذات الله . فهل يقدر؟

هب أن أحدا لم يمنعه ولم ينهه من التفكير . . فكيف يصل؟ بأية أداة وأية وسيلة ؟

العقل ؟

أو ليس العقل ذاته هو الذى قال للإنسان : إن المحدود لا يحيط بغير المحدود ، والفانى لا يحيط بمن لا يدركه الفناء .

فيم إذن تسخير العقل فيما يقول العقل ذاته إنه مستحيل ؟

وهل وصل الناس إلى شىء حين سخروا عقولهم لذلك المبحث المستحيل؟

هل وصلت « الفلسفة » فى جميع أطوارها وجميع محاولاتها إلى حقيقة واحدة مستقرة تكشف للناس عن المجهول ؟ أم باءت كلها بالفشل الجازم والعجز المحتوم !

وهل هذه التخبطات التى كتبها الفلاسفة فى شأن الله حقيقة بأن ينظر إليها عاقل ويوليها شيئاً من اهتمامه ؟

وفيم هذا العناء كله ؟ ! ما وراء النطح فى الصخرة التى تحطم الرءوس؟ !

أيريد أن « يصل » إلى الله ؟ سبحان الله ! فما له لا يصل عن الطريق المعبد المفتوح ؟ ما له يلف ويدور ، ويعود « كالمخوويت » الذى ركبه الخبال !

يريد أن يصل إلى الله ؟ أما يحس فى أعماق نفسه السبيل ؟ أما يترك العنان للفطرة وهى تصل به إلى هناك ؟ أما يدع روحه تحلق وحدها ، عارفة طريقها إلى النور الذى قبست منه وهى كائنة فى علم الله منذ الآزال والآباد . . ؟

الطريق هو الإيمان !

والفطرة تعرف الطريق !

وما يحتاج الإنسان إلا إلى أن يدع فطرته على سجيتها . لا يكبلها بقيود مصطنعة من فلسفة منحرفة أو علم فطير. ولا يغشيها بركام الشهوات الغليظة والنزوات الهابطة التي تحجب شفافيتها وتمنع عنها النور .

وهي وحدها تهديه إلى الله . . لأن الله فطرها على الهدى إليه !

وإن أراد عوناً للفطرة وهي في الطريق إلى الله . . فليكن ذلك العون الأكبر هو تدبر آيات الخلق ، والبحث عن آيات القدرة في صفحة الكون الحافلة بالمعجزات .

فذلك هو الذي يطيقه . وذلك هو الذي يعينه على السبيل .

« إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً ! سبحانك ! فقنا عذاب النار»[1]

وآيات الله في الكون عميقة الغور جداً ، وهي في الوقت ذاته معروضة في وضوح ويسر لكل عين متفتحة وكل قلب طليق .

« ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون »[2] .

إن الكون كله آية الله . وفي كل شيء منه آية لمن أراد التذكر أو ألقى السمع وهو شهيد .

الليل والنهار . الشمس والقمر والأفلاك . السحاب والمطر . النبتة الحية الخارجة من الحبة الميتة (في ظاهر العين) والحطام الميت الذي ينتهي إليه النبات الحي . الأرض « الميتة » التي تخرج الحياة والحياة التي تفضي في الأحياء

---

(١) سورة آل عمران [١٩٠ ـ ١٩١] .
(٢) سورة غافر [٨١] .

جميعاً إلى الموت . الإنسان الذى صوره الله فأحسن تصويره . الأرض التى بث فيها من كل دابة . التوافق بين الحياة والأحياء يبدو فى الأشعة الكونية التى يرسلها الفضاء للأرض فلا تقوم بدونها الحياة ، كما يبدو فى النسب المضبوطة من البحر واليابس ، والأكسجين والإيدروجين والنتروجين . . ومدى صلابة القشرة الأرضية ، ومدى تأثر الأرض بالجاذبية ، ومدى بعدها عن الشمس ومدى سرعتها أمامها . . إلى آخر هذه الموافقات .

والرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو الناس إلى تدبر آيات الله فى الخلق . والقرآن الكريم يفصل هذه الآيات تفصيلاً ، لا تكاد سورة واحدة تخلو من ذكر آية منها أو آيات . .

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً . ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . » (١)

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر ب

---

(١) سورة الأنعام [٩٥ ـ ٩٩] .

السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » [1] .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » [2] .

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » [3] .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا

---

(١) سورة البقرة [١٦٤] .　　(٢) سورة الأنعام [٥٩] .

(٣) سورة الروم [٢٠ ـ ٢٧] .

الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون . وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين »[1] .

وهكذا وهكذا لا تخلو سورة من إشارة عابرة أو مفصلة لآيات القدرة القادرة المبدعة المعجزة المدبرة المريدة .

والله هو فاطر هذه النفس البشرية العالم بدروبها ومنسرباتها ، وبما يصلحها وما يصلح لها . وقد اقتضت حكمته أن تكون الفطرة ذاتها مهتدية إلى الله ، بالطريقة الخفية التى هدى بها كل شيء إليه : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »[2] دونما كد ولا جهد ولا عناء فى الاهتداء إليه ، كما يسير الكهرب فى الذرة فى مساره المرسوم ، وتسير الذرة فى مادتها فى مسارها المرسوم ، وتسير الأرض والكواكب والأفلاك فى مسارها المرسوم ، لا تحمل عناء السير ، ولا تشقى نفسها فى استكناهه ، وإنما تسلم نفسها لله العزيز العليم . .

كما اقتضت حكمته ـ وقد خلق للإنسان عقلاً ميزه به من سائر الخلق الذى نعرفه ـ أن يكون دور العقل الواعى فى الاهتداء إلى الله مساندة الفطرة الخفية المسارب ، و « توعية » مسارها (أى جعله واعياً واضحاً مفهوماً) ؛ ورسم لذلك منهجاً واضحاً وطريقاً مستقيماً . . هو تدبر آيات الله فى الكون .

وحقاً إنه لكذلك . . فما يتدبر الإنسان هذه الآيات بوعى يقظ وقلب متفتح إلا هدته من فورها إلى الله ، خالق الكون والحياة .

ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . إن الله لم يكلف الناس أن يبحثوا فى ذاته سبحانه . لم يكلفهم الجهد الذى يعلم ـ سبحانه ـ أنهم لن يقدروا عليه قط ، وأن قصارى ما يحدث لهم حين يحاولون أن تنفجر طاقتهم وتتبدد ، كما

---

(١) سورة يس [٣٣ ـ ٤٤] . (٢) سورة طه [٥٠] .

تنفجر طاقة الذرة التى انحرفت عن مسارها ، فتتحطم وتحطم ما تلقاه فى الطريق !

وحين نهى الرسول الكريم أتباعه عن أن يفكروا فى ذات الله كيلا يهلكوا ، لم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحجر على تفكيرهم أو يضع عليه القيود .

كلا ! إنما كان يوفر جهدهم للنافع من الأعمال . كان يصون هذا الجهد أن يتبدد سدى ، ويؤدى إلى الضلال . كان يريد للناس أن ينفقوا طاقتهم ـ بعدأن يقضوا حظهم من تدبر آيات الله فى الكون والاهتداء إليه ـ فى تعمير الأرض وزيادة « الإنتاج » . الإنتاج بمعناه الواسع الشامل العميق . الإنتاج الروحى والفكرى والمادى. فى ميدان العقيدة وميدان الجهاد وميدان العمل بمعناه الاصطلاحى المفهوم .

ولقد حدث ذلك بالفعل . . .

حين صان المسلمون طاقتهم أن تتبدد وتنفجر وتتناثر فى أودية الضلال . . كان لهم إنتاج ضخم ، هو أكبر إنتاج فى التاريخ حين يقاس بمقياس الزمن ومقياس الرفعة ومقياس القيم ومقياس الحضارة المادية ومقياس العلم . . وكل مقياس يصلح للقياس .

ففى فترة قصيرة لا مثيل لها فى التاريخ امتد العالم الإسلامى من المحيط إلى المحيط ، وامتدت معه مبادئ الإسلام الشاملة للسماء والأرض والعمل والعبادة والدنيا والآخرة . وقامت « نظم » للحكم والسياسة والمال والاقتصاد غير مسبوقة من قبل ، تحمل فى أطوائها العدالة الاجتماعية ، وتنشئ مجتمعاً مترابطاً متكافلاً متحاباً متواداً ظل ألف سنة على ترابطه وتكافله حتى بعد أن فسدت الحكومات وابتعدت عن روح الدين . وامتص الإسلام كل ما وجده نافعاً من الحضارات المادية السابقة له والمعاصرة له ، ثم أعطاها الحياة . .

فانطلقت تعمل فى تعمير الأرض وقد اصطبغت بصبغة الإسلام وتشربت روحه ، فصارت تعمل فى الأرض وهى تتجه إلى السماء . وتبنى الإسلام كل ما وجده من العلم لدى الإغريق والهنود ـ من طب وفلك ورياضة وطبيعة وكيمياء . . إلخ ، ثم أضاف إليه إضافات شتى تشهد بحيويته وقوته الدافقة الدافعة إلى الأمام . .

ولم يكن « الفكر » الإسلامى عاطلاً ولا محجوراً عليه . وإنما كان ـ فيما عدا القلة الشاذة التى انحرفت بتأثير الفلسفة الإغريقية بعض الانحراف (لا كله) ـ يتجه إلى خير الناس فى الأرض ، ويسعى إلى سعادتهم بكل وسائل السعى . ويرى أنه حين يبحث فى العلوم ـ البحتة أو التطبيقية ـ وحين يتعمق فى الفقه الذى يشمل سياسة الحكم وسياسة الاقتصاد وموقف الفرد وموقف الدولة وموقف المجتمع وعلاقات بعضهم ببعض فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة اليومية والحياة العامة ، كما يشمل العبادات بكل تفريعاتها ، وحين يعمل فى ميدان الجمال الفنى فى صوره التى كانت ميسرة لهم من رسم وزخرفة وعمارة وشعر ونثر . . إلخ يكون قد قام بواجبه الأمثل وحقق وجوده الكامل . وأنه ترجم التدبر فى آيات الله إلى فكر نافع وعمل نافع وقيم حية متحركة فى واقع الأرض ، لا فى الأبراج العاجية ، ولا فى عالم المثاليات .

وكان ناجحاً فى رسالته التى استمدها من كتاب الله وسنة رسوله .

* * *

ولكننا نقلب صفحة أخرى لقوم لم ينتصحوا بنصيحة الله والرسول . .

قوم فى أوربا راحوا ينفقون طاقة علمائهم ومفكريهم فى البحث فى ذات الله وما أشبه ذلك من الأمور .

ونعرض لإنتاجهم الفكرى فى هذا الباب عرضاً «موضوعيا» فنجد لاشىء!

ومن كان فى شك من ذلك فليقرأ كل ما كتبته الفلسفة فى هذا الموضوع ، ثم ليسأل نفسه : هل زاد معرفة بالله عن هذا الطريق ؟ هل « وضحت » له المعالم ؟ هل « وصل » إلى شىء لم يكن يصل إليه وهو يتدبر آيات الله فى الكون ويفتح بصيرته على القدرة المعجزة فى كل اتجاه ؟

أم العكس هو الصحيح ؟ اختلطت فى ذهنه الشيات والملامح ، والتصورات والأفكار ؟ وتاه فى محيط من الجدل المتناقض الذى لا يركن إلى قرار؟ !

صورة فى ذهنى تتمثل لعمل أولئك الفلاسفة ! تلك مرآة لامعة يبصر فيها الإنسان وجهه بكل دقائقه ، ولكن فيها قطعة « مغبشة » هنا أو قطعة مطموسة هناك ، فيروح هذا « الفيلسوف » يحاول أن « يجلوها » فيمسح بأصابعه وجه المرآة ، فإذا القذر من أصابعه قد غبش الصفحة كلها ، وإذا الصورة التى كانت واضحة لم تعد تبين !

ودعك من القيمة الموضوعية لهذه الأفكار ، وانظر كيف كانت النتيجة . . كيف كان عاقبة الذين أبوا أن ينتصحوا بأمر الله ويهتدوا بسنة رسوله .

لقد « حلق » المفكرون والفلاسفة فى أبراجهم العاجية وتركوا الناس فى الأرض . . تركوا الناس يأكلهم الظلم والإقطاع والجهل والجمود والتفكك . فهذه المظالم ترتكب كل يوم ، والكادحون تُمتص دماؤهم وهم صاغرون مغلوبون على أمرهم . . بينما السادة المفكرون فى جدل أخرق لا هو يهتدى إلى نتيجة ، ولا هو ينزل إلى الأرض ليرى آلام الناس ويحاول أن يبحث لهم عن علاج . .

وكفر الناس . . وحق لهم أن يكفروا . .

كفروا بالفلسفة « المثالية » التى تحلق فى عالم الخيال وعالم المثل ، وتترك

واقع الأرض المنتن ينخل فيه الدود . .

وقاموا يحطمون هذه « المثالية » المتعفنة التى لا قلب لها ولا ضمير .

ومع المثالية الخاوية حطموا ـ مع الأسف ـ فكرة الله والعقيدة .

حطموها ، لأن هذه المثالية كانت تدور حول فكرة الله ، وتزعم أنها تصل إلى « جوهر » العقيدة .

وعلى أنقاض فكرة الله والعقيدة ، وأنقاض الفلسفة المثالية الخاوية قامت فلسفة مادية جاحدة لا تعرف الله ولا تؤمن بالعقيدة .

وتشعبت تلك الفلسفة حتى شملت كل جوانب الحياة . .

دارون ، وماركس ، وفرويد ، والتجريبيون والسلوكيون . . التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ . . والوجودية والانحلالية واللادينية واللاخلقية واللا . . إنسانية !

ومضت أوربا فى طريقها المجنون الذى لا ينتج إلا الدماء فى نهاية الطريق .

إن أوربا لم تتقدم فى ميدان العلم والعمل إلا حين أخذت بشق من نصيحة الرسول الكريم ، فانتبذت التفكير فى ذات الله ، ووجهت طاقتها لتعمير الأرض فى واقع الحياة . . وخطت خطوات جبارة فى هذا السبيل .

ولكنها ـ مع الأسف ـ لم تأخذ نصيحة الرسول كاملة ، ولم تهتد بهديه السليم . لم تأخذ منها عبادة الله ، والتوجه إلى الله .

ومن ثم انطلقت ـ بقوتها المادية الهائلة النامية المتزايدة ـ انطلقت تعبد الشيطان .

« ويحسبون أنهم مهتدون » !

« وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » !

وكانت النتيجة هى القوة المادية الهائلة التى تتمتع بها أوربا ، والضلال المبين الذى تغرق فيه .

الرأسمالية هنا والشيوعية هناك . .

كلاهما انحراف عن استقامة البشرية ، وكلاهما قائم على أسس مادية خالصة لا تؤمن بالله الإيمان الحق . ولا تحكمه فى أمر من أمور البشرية .

الحقيقة عندهم هى ما تستطيع الحواس أن تدركه . وكل ما لا تستطيع الحواس إدراكه فهو ساقط من الحساب .

وأمور العقيدة فى عالم الغرب الرأسمالى أمور « تستعمل من الظاهر » وليس لها فى واقع الحياة نصيب . لا فى التوزيع الاقتصادى العادل الذى يرضى الله ورسوله ، والذى لا يكون فيه المال « دولة بين الأغنياء منكم » ولا فى الأخلاق التى ترفع الإنسان عن مقاذر الشهوة وحيوانية الغريزة .

وأمور العقيدة فى الشرق الشيوعى مصادرة بأمر الدولة ، حتى يكون الولاء كله « للدولة » . وحين رفع الحظر هناك عن الدين والعقيدة ـ لأسباب سياسية ، للدعاية فى الشرق الإسلامى خاصة ـ فقد رفع بعد أن صار الإلحاد يدرس رسمياً فى المدارس ، وتدعو له الكتب والصحافة والسينما والإذاعة وكل وسائل الدعاية ، وصار الشباب الذى تربى فى ظل المذهب محصناً ضد «جرثومة» الدين !

والنتيجة الأخيرة هى هذا الصراع المدمر الرهيب بين الشرق والغرب ، وبين كل قوى الأرض .

حربان فى ربع قرن . . والثالثة على الأبواب !

ما أحوج الناس إلى حكمة الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» .

تعبد الله كأنك تراه !

« . . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [1]

* * *

الإحسان . . أن تحسن الشيء فتجعله حسناً .

والإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه !

كان السؤال قبل ذلك عن الإسلام، ثم عن الإيمان . الإسلام درجة والإيمان بعد ذلك درجة ، وهذه هي درجة الإحسان . لكي يكون إسلامك حسناً وإيمانك كذلك .

---

(١) رواه مسلم . من حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسند ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يامحمد أخبرني عن الإسلام . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . » .

تعبد الله كأنك تراه . .

تعبير عجيب يحمل فى بساطته حقيقة هائلة .

وأروع ما يروعنى ـ وقد يكون هذا تأثراً ـ أنه يفاجئك وأنت تقلب وجهك فى الآفاق ، باحثاً عن الإجابة ، يفاجئك بالقبلة التى ينبغى أن تتجه إليها ! فإذا أنت ـ على غير توقّع منك ـ ترى النور . .

النور الذى يبهر العين والقلب ويبهر الروح .

ترى الله . . .

« الله نور السماوات والأرض . . . نور على نور . يهدى الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس . والله بكل شىء عليم » .

* * *

القاعدة الكبرى التى يقيم عليها الإسلام بناءه كله : هى أن تعبد الله كأنك تراه .

يقيم عليها نظمه جميعاً ، وتشريعاته وتوجيهاته جميعاً . .

نظام السياسة . نظام الاقتصاد . نظام المجتمع . موقف الفرد من الدولة وموقف الدولة من الفرد . نظام الأسرة . معاملات الأفراد . معاملات الدول فى السلم وفى الحرب . . كل شىء فى هذه الحياة !

ولقد يخطر للإنسان ـ أول ما يخطر ـ أن هذه عبادة ! أليست هى : أن «تعبد الله » ؟!

بل قد يخطر للإنسان أنها العبادة القصوى ، التى ينقطع فيها الإنسان عن كل شىء فى الحياة ، ليخلو إلى ربه ، يخلو له بوجدانه وحسه وقلبه . . هنالك فى عزلة عن الآخرين !

وإنها لعبادة حقاً ، ما فى ذلك شك ، وإنها لأقصى العبادة كذلك .

ولكنها ـ وهى أقصى عبادة العبد للرب ـ لتعود من عزلتها وخلوتها ، فتتسع وتتسع حتى تشمل كل محيط الإنسانية !

بل إنها ـ منذ لحظتها الأولى ، وفى خلوتها ـ هى النور الساطع الذى يضىء جنبات الحياة ، فى ذات اللحظة التى يضىء فيها جنبات النفوس .

حقيقة واحدة ظاهرة وباطنة ، تشمل الفرد وحده وتشمله فى محيط الجماعة ، فإذا هى شعور وسلوك ، وعبادة وعمل فى آن !!

الإسلام كله هذه الحقيقة .

الإسلام ـ وحده ـ هو الذى يجعل العبادة عملاً والعمل عبادة ، والذى يربط النفس والجسم ، والسماء والأرض ، والدنيا والآخرة كلها فى نظام .

* * *

تعبد الله كأنك تراه . .

إنه عالم واسع يفيض بالحب ، ويفيض بالتقوى ، ويفيض بالأمل ، ويفيض بالرهبة ، ويفيض بالنور .

الإنسان فى مواجهة مولاه . فى مواجهة الذات العظمى الخالقة القاهرة المستعلية المشرفة على جميع الكائنات . والنور ـ نور السماوات والأرض ـ يغمره من كل جانب ، وينفذ إلى أعماقه ، فيضىء ثنايا قلبه ، ويستقر فيه .

الإنسان فى مواجهة مولاه . . . بنفسه جميعاً . بكل جوارحها وكل خلجاتها . بظاهرها وباطنها ، بدقائقها ولطائفها ، بأسرارها وما هو أخفى من الأسرار . .

وكلها مكشوفة لله . . « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » !

يا الله ! إنها الرهبة والقشعريرة تملأ النفوس .

عين الله البصيرة النافذة إلى كل شيء فى هذا الوجود ، إلى كل نأمة وكل خاطرة وكل فكرة وكل شعور . . إنها تراك وترقبك . سواء كنت متيقظاً لهذه المراقبة أم غافلاً عنها . وسواء أعددت نفسك لها أم كنت من المعرضين .

وإنه لخير لك أن ترى الله كما يراك . . خير لك أن تتوجه إلى حيث ترقبك العين البصيرة النافذة . فتأمن المفاجأة !

إنها الرهبة فى الحالين . . الرهبة فى حضرة المولى العزيز العليم القوى الجبار . ولكنها الرهبة والأمل هنا ، والرهبة والذعر هناك !

الرهبة والأمل وأنت متوجه إلى الله ، مخلص له قلبك ، عامل على رضاه . .

والرهبة والذعر حين تتوجه بعيداً عنه وهو من ورائك محيط ! فخير لك إذن أن تعبد الله كأنك تراه !

وحين تتوجه إليه بنفسك جميعاً ، ظاهرها وباطنها ، وسرها ونجواها . . وحين تتوجه إليه وفى نفسك شعور التقوى الخاشعة والرهبة العميقة . . فلا شك أنك ستنظف نفسك وتحرص على نظافتها .

إن الله لا تخفى عليه خافية . فكيف تستتر منه وأنت مقبل عليه ؟ كيف يمكن أن تعمل عملاً واحداً لا يراه ؟

« ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » [1] « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » [2] « يعلم السر وأخفى » [3] « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » [4].

---

(١) سورة ق [١٦].
(٢) سورة غافر [١٩].
(٣) سورة طه [٧] .
(٤) سورة الحاقة [١٨] .

يا الله ! حتى خائنة الأعين ! الخائنة التى يظن الإنسان أنه وحده الذى يحسها ويعرفها ، وألا أحد فى الوجود كله يراها أو يفهمها ؟

حتى الوسوسة التى لا يطلع عليها أحد ، وصاحبها نفسه قد ينساق معها دون أن يتيقظ لها ؟

حتى السر . بل ما هو أخفى من السر . الخطرات التائهة فى مسارب النفس ، لا تصل إلى ظاهر الفكر ، ولا يتحرك بها اللسان للتعبير !

يا الله ! إنه لا ستر إذن ولا استخفاء .

كل نفسك مكشوفة وأنت مقبل عليه . أفلا تنظف نفسك إذن قبل الاتجاه . ألا تزكيها ؟

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح مَن زكاها . وقد خاب من دساها » . .

فأما إن كنت معرضا عنه غير متوجه إليه . إن كنت لا تنظف له نفسك ولا تزكيها . فلن يغير ذلك شيئا من الأمر !

إنه يراك ! يراك بكل ما تصنع بنفسك من « تدسية » ومن سوء . يراك بخبائثك وأوضارك . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

يراك . فما الفائدة فى التستر والاختفاء ؟ بل ما الفائدة من الإعراض والانصراف ؟ الملك غير ملك الله تذهب ؟ و « بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » ؟! « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون » . أم حسبوا أنهم معجزون فى الأرض ؟ أم حسبوا أن يفلتوا من العقاب ؟

كلا ! ما شىء من ذلك بمستطاع . فخير لك أن تراه وهو يراك !

وإنه لا يكلفك من أمرك رهقاً !

« هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج »[1] . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها »[2] . « فاتقوا الله ما استطعتم . . »[3] .

إن رحمة الله واسعة . وإنه ليعلم ضعف الإنسان وما ركب فى طبيعته من حب الشهوات : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . »[4] . ويعلم أن الجهد شاق والسفر طويل .

لذلك يقول « فاتقوا الله ما استطعتم » . .

ويقول : « ادعونى أستجب لكم » . ادعونى لكل شىء ! وادعونى ـ فيما تدعوننى إليه ـ لأعينكم على تنظيف أنفسكم من وعثاء الطريق !

هل جربت أن تستعينه فى هذا الأمر ؟

صدق الله وصدق وعده الحق .

ما يتوجه له إنسان يستعينه على نظافة النفس وطهارة القلب ، إلا استجاب له وأعانه على ما يريد !

وما هو بسحر ساحر ! ولكن هكذا يحدث حين يتجه القلب إلى الله ويخلص فى دعواه . إنه يجد الأمر عليه هيناً ، ويجد نفسه أكبر من المغريات وأقوى من المعوقات . ويحس ـ إحساسا ملموساً مجسماً ـ أن الله هو الذى يعينه وييسر له السبيل !

---

(١) سورة الحج [٧٨] .
(٢) سورة البقرة [٢٨٦] .
(٣) سورة التغابن [١٦] .
(٤) سورة آل عمران [١٤] .

ومع ذلك كله فقد تضعف فى الطريق وتخور قواك . فهل يلفظك من رحمته ويحل غضبه عليك ؟

كلا ! ما دمت لم تنكص على عقبيك ولم تتنكب الطريق .

إنه يغفر . يغفر الذنوب جميعا ، وسعت رحمته كل شىء .

« والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين » (١)

« إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً . فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيماً » (٢) .

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا » (٣)

كلا ! لن يلفظك من رحمته ما دمت باقياً على الطريق . وما عليك إلا أن تقوم من عثرتك وتنفض ثوبك وتتجه إليه من جديد . . .

* * *

وحين تتوجه إليه . حين ترقبه كأنك تراه . حين تنظف نفسك وتحرص على ألا تتلوث فى الطريق . حين تحاسب نفسك على كل صغيرة وكبيرة خشية أن تكون قد حدث . حين تراجع كل عمل عملته وكل كلمة قلتها وكل خاطرةوسوست بها نفسك وكل حركة تحركتها جارحة من جوارحك . .

---

(١) سور آل عمران [١٣٤ ـ ١٣٥] .
(٢) سورة الفرقان [٧٠] .
(٣) سورة الزمر [٥٣] .

حينئذ يستقيم الأمر كله فى هذه الحياة .

أمر الحاكم والمحكوم . والفرد والمجتمع . والمرأة والرجل . والوالد والولد . والأمة والأمم على أوسع نطاق .

كيف يظلم الحاكم حين يرقب الله كأنه يراه ؟ كيف تتجه نفسه إلى الشر والبطش والله يقول : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » [1] « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ؟ [2] وكيف يضع فى مكان العدل الذى يطلبه الله نزواته هو وهواه ؟

والعدل بالنسبة للحاكم ميدان واسع فسيح ، يشمل كل سياسة الحكم ، وسياسة المال ، وكل معاملاته « الرسمية » ومعاملاته « الشخصية » . وهو مأمور فى كل منها أن يرقب الله ، ويعبده كأنه يراه . .

لا يمكن حينئذ أن يتعدى حدود الله أو يعتدى على حرمات الله . .

فلا يمكن مثلاً أن يعلن الحرب أو يبرم السلم إلا فى سبيل الله وفى حدود ما بيَّن الله . والله يقول « ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين » . ويقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . ويقول : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ولا يركن إلى أعداء الله ولا يتخذ بطانة منهم فالله يقول : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ـ إلا أن تتقوا منهم تقاة » . ويقول : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » .

---

(١) سورة المائدة [٨] (٢) سورة النساء [٥٨] .

وهكذا وهكذا حتى يشمل ذلك سلوكه كله ، وتصرفاته كلها ، منذ يتسلم الأمانة حتى يسلمها إلى الله أو إلى الناس . لا يفلت عمل واحد ولا فكرة ولا رغبة من رقابة الله ورقابة الضمير .

* * *

والمحكوم كذلك حين يعبد الله كأنه يراه .

فعليه عمله يؤديه بالأمانة اللازمة والاجتهاد الواجب . لا يخدع ولا يغش ولا يتكاسل ولا يتشاغل . ولا « يسدد الخانات » دون إنتاج حقيقى . ولا يعمل على الضرر وهو عالم به . ولا يبغى الفتنة ولا الفساد فى الأرض . ولا يستغل مال الدولة . ولا يطمع فيما ليس له .

ولا يقبل الظلم كذلك ! فهو مكلف أن يذود الظلم عن نفسه وعن غيره ، وإلا فما هو بمؤمن بالله ، ولا هو يعبده كأنه يراه ! « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ! قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

والزوج الذى يرعى الله فى زوجته . والزوجة التى ترعى الله فى زوجها . والوالد والولد . والجار والصديق . والجندى والقائد . والصغير والكبير . . .

إن المجتمع كله كله . . . لا شىء فيه البتة يخرج من هذه الكلمة الصغيرة التى تشمل كل شىء : تعبد الله كأنك تراه !

* * *

وحين كان المسلمون الأوائل يعبدون الله كأنهم يرونه كانت تلك الأمة العجيبة الفريدة فى التاريخ ! « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

كان الحاكم يقول : « اسمعوا وأطيعوا ما أطعت الله فيكم . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

وكان يقول : « إن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى »

وكان وهو يحارب كسرى وقيصر ، ويواجه أكبر إمبراطوريتين فى التاريخ ، لا يضيق بالتقويم الذى طلبه من الناس بنفسه . فيقبل من رجل من المسلمين أن يقول له : لا سمع لك علينا اليوم ولا طاعة حتى تبين لنا كذا وكذا . فلا يغضب ، بل يجيبه فى الحال إلى طلبه ويبين له .

وكان يقول : لو أن بغلة بصنعاء عثرت لرأيتنى مسئولاً عنها !

وكان يعمل على توطيد العدالة الاجتماعية فى المجتمع حتى أمكنه - لأول مرة فى التاريخ - أن يلغى الفقر من المجتمع ، كما حدث أيام عمر بن عبد العزيز ! وكان الجندى يقول : أليس بينى وبين الجنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلنى ؟ ثم يقتحم المعركة ليصيب إحدى الحسنيين !

وكان القائد يُعزل فى زهوة النصر فلا يضطغن ولا يتمرد ولا يترك ميدان القتال . وإنما يستمر يجاهد فى سبيل الله جندياً لا إمارة له ولا سلطان .

وكان البائع يستحى من الله أن يكسب ماليس له بحق ، فيرد نقوداً أخذها صبيه دون علم منه من أحد المشترين . ويصر على ردها إليه حتى والمشترى يحلف بالله أنه دفعها راضياً وأن البضاعة فى نظره تستحق . وكان الزوج يعاشر زوجته بالمعروف ، والزوجة تصون عرض زوجها فى غيبته . فيذهب إلى ميدان القتال ويغيب بالشهور وهو مطمئن إلى بيته وعرضه وماله . لا يقربها السوء !

وكان المجتمع نظيفاً . . .

لا تقوم علاقات الناس على الغش فى البيع والشراء . لا يعهد الإنسان إلى

العامل أو الصانع بالعمل وهو متوجس منه خيفة أن يغشه أو يدلس عليه أو يسرق الأمانة ويذهب إلى غير رجوع !

لا يتحدث الرجل إلى الرجل وهو يعلم أنه يكذب عليه ويخدعه . ويبادله فى الوقت ذاته الكذب والخداع !

لا يكذب الوالد على أبنائه فيعلمهم الكذب بالقدوة السيئة . ولا يكذب الابن على الوالد ، لأنه لا يتعامل معه ، وإنما يتعامل مع الله !

ولا يسرق الشاب عرض امرأة متزوجة أو فتاة غريرة . ولا تخرج الفتاة متبرجة فى سوق الفتنة تحاول أن توقع الشباب !

لم يكن الناس ملائكة ! كانوا بشراً ما يزالون ! ولكنهم بشر مستقيمو الفطرة لا عِوَج فى نفوسهم ولا التواء . متحابون فى الله . متعاونون على البر والتقوى لا متعاونون على الإثم والعدوان .

وكانت هناك جريمة . . فإن وجه الأرض لم يخل من الجريمة فى وقت من الأوقات . ولكنها كانت الشذوذ الذى يثبت القاعدة . ولم تكن القاعدة هى الشذوذ !!

* * *

ومن ثم انطلقت هذه الأمة تنشئ تاريخاً لم يسبق فى التاريخ !

ليس الفتح وحده هو الذى يلفت النظر ، وإن كان حقيقاً بالتسجيل فى سرعته الخاطفة التى لامثيل لها من قبل ولا من بعد فى التاريخ . ففى خمسين عاماً كان العالم الإسلامى الذى بدأ من لا شىء قد امتد من المحيط للمحيط . وكان كله ـ أو معظمه ـ قد اعتنق العقيدة الجديدة ، وانقلب محارباً فى سبيلها لا يهدأ حتى يراها قد بلغت إلى أفق جديد !

وإنما الذى يلفت النظر هو تلك القمم العالية التى بلغها فى كل اتجاه . قمم العدالة الشامخة والعظمات النفسية والروحية التى تتكاثر وتتواكب فى هذه الحقبة الصغيرة من التاريخ .

واتساع الجوانب وتعدد الآفاق . فى الحرب والسلم . فى السياسة والاجتماع . فى الحضارات المختلفة التى استوعبها الإسلام ، ومثلها تمثيلاً رائعاً فامتص ما فيها من خير ، وألقى بالزبد إلى الفناء .

فى الروابط القوية المتينة التى شملت العالم الإسلامى كله ، وفاضت منه إلى غير المسلمين حتى وهم يكيدون للدين . وحتى وهم يحاربونه أبشع حرب وأدنسها فى أيام الصليبيين .

هذه الروابط المتينة التى صنعت معجزة لم تتكرر فى غير الإسلام . إذ فسدت الحكومة ـ مبكراً ، على أيدى الأمويين والعباسيين ـ ولكن المجتمع ظل إسلامياً ، متماسكاً ، متكافلاً ، تربطه روح الإخاء والمودة ما يقرب من ألف من السنين !!

* * *

ذلك كله كان أثر العبادة الحقة ، التى تعبد الله كأنها تراه !

ولقد كان القدوة الكبرى فى ذلك دون شك هو الرسول الأعظم ، منشئ هذه الأمة ومربى قادتها وجنودها على هدى الله وهدى الإسلام .

كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى الله كل لحظة من لحظات حياته الطويلة العريضة الشاملة الفسيحة .

كان يراه وهو يتلقى الوحى عنه ـ سبحانه ـ فتطيقه نفسه وتستوعبه إلى الأعماق .

وكان يراه وهو ينطلق فى مناكب الأرض يدعو الناس إلى هذا الوحى لكى يهتدوا به إلى الله .

وكان يراه وهو فى بيته زوجاً وأبا ورب أسرة .

ويراه وهو مع الناس وقريباً ومعلماً وهادياً إلى سواء السبيل .

ويراه وهو يقاتل فى سبيل الله ، وهو يعقد السلم ويرجع من جهاد إلى جهاد .

ولا نتحدث عن العبادة فى الخلوة فهى فى غير حاجة إلى حديث .

يراه . ويعيش معه كل لحظات حياته ، وكل مشاعر نفسه ، وكل خلجاتها وكل سرها ونجواها .

ولا تضعف نفسه عن التلقى ، ولا يضعف قلبه عن استيعاب النور الذى يغمره كلما رآه .

هكذا كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخاتم النبيين وسيد المرسلين

* * *

ثم كان أصحابه الذين صنعهم على عينيه ، ورباهم تربية خبير عليم .

كانوا يرون الله بقدر ما تطيق نفوسهم وبقدر ما تصطبر على الأفق الأعلى المشرق المضىء الذى لا تحتمله النفوس ، إلا أن تقبس قبسات من فيض الله الغامر ، وقبسات من الرسول .

ثم كانت نفوس على مدار الزمن تتفرق أحياناً ، وتجتمع أحياناً ، تعيش على حب الله والعمل فى سبيله ، وعبادته كأنها تراه .

وما تزال هذه النفوس حيثما لقيها الإنسان ، يحس فى الحال بالفارق الحاسم بينها وبين الذين لا يعبدون الله ، أو الذين يعبدونه على حرف فإن أصابهم

خير اطمأنوا به وإن أصابهم شر انقلبوا على أعقابهم . . خسروا الدنيا والآخرة .

تحس على الفور حين تلقى أحداً منهم أنك أمام « إنسان » . إنسان بهذا المعنى الذى كرمه خالقه وفضله على كثير ممن خلق . إنسان تأنس إليه وتستريح عنده ، تستريح فى تعاملك معه وفى علاقاتك . تستريح إلى الاستقامة النظيفة التى لا عوج فيها ولا التواء .

ونحبه . .

لا تملك إلا أن تحبه ولو خالفك فى أفكارك وأعمالك ومشاعرك واتجاهاتك .

تحبه لأن فيه قبسة من نور الله . . . وتحاول ـ إن استطعت ـ أن تقفو خطاه . .

ومن ثم كان حرص الإسلام ونبى الإسلام ، وهو يعلّم الناس دينهم . أن يبين لهم الإحسان . ويصفه لهم فى أخصر لفظ وأجمله . « تعبد الله كأنك تراه» . ويوقظ قلوبهم بوجدان التقوى وخشية الله : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

ومن ثم كذلك كان حرص الإسلام ونبى الإسلام ، على ألا يقف الناس عند أول مراتب الإسلام ولا أول مراتب الإيمان . إنما يحاولون بلوغ الإحسان ، ويحاولون على الدوام !

... وَليُـرِح ذَبَـيحَتـه !

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء ؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته »[1] .

* * *

يا ألله ! يارحمة نبيه . . !

« وليرح ذبيحته » . . ومتى ؟ وهو مقدم على ذبحها !!

ألا إنها رحمة أنبياء . ألا إنها روح الله .

إنه مرتقى للمشاعر البشرية يبلغ القمة التى ليس وراءها شيء . إلا ذلك النور الأعظم الذى ينير الكون كله وينفذ إلى قلوب الكائنات .

إنها الرحمة التى لا تقف عند الأناسى من الخلق ، ولا يحكمها انحياز الإنسان لنفسه واعتداده بجنسه . وإنما تتعداها إلى المجال الواسع الفسيح الذى يشمل كل الأحياء فى الكون .

ثم لا تقف عند هذا المدى - وهو فى ذاته قمة عالية - وإنما ترتقى درجة أخرى !

فالرحمة بالأحياء درجة « مفهومة » على أى حال ، سواء وفق إليها القلب البشرى أم انحرف عنها وشذ .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

مفهوم أن تقول لى : لا تقتل هذا العصفور. فإنه ضعيف مسكين. وهو جميل لطيف لا يستحق القتل .

ومفهوم أن تقول لى : لا تقتل هذه الفراشة الطائرة القافزة الرشيقة ، فإنك لن تستفيد شيئاً من قتلها ، وهى فى رشاقتها اللطيفة جمال يحسن أن تمتع به حسك وروحك .

بل مفهوم أن تقول لى : لا تقتل هذه الزهرة الجميلة ـ حتى إن كانت لا تتألم للقتل ـ فهى على غصنها هكذا جميلة . . أجمل منها فى يدك أو فى عروة ثيابك .

كل ذلك مفهوم . والقلب البشرى الطيب يمكن أن يوجه إليه فى يسر ، فيعتاده فيصبح من طباعه .

ولكنها درجة ـ وراء هذا المفهوم ـ أعلى وأشف ـ أن أقول لك : هذه الذبيحة التى ستذبحها ، والتى لن تكون حية بعد لحظات . . أحْسِنْ ذبحتها ولا تطل آلامها ولا « تمتها موتات » كما ذكر البخارى فى حديث قريب من هذا الحديث [1] .

وليرح ذبيحته !

إنها كلمة تهز الوجدان هزاً كلما تذكرها وتمثلها ! و « ليرح » . .

الحرص على إراحة الذبيحة وهى تذبح . وهى تساق إلى العدم . إلى الفناء . إلى حيث لا توجد ولا تشعر .

ما القيمة « العملية » لإراحة الذبيحة هذه الثوانى المعدودة التى تنتقل فيها من عالم الوجود إلى عالم الفناء ؟ بل ما قيمة إراحتها وأنت مقبل على إيلامها أشد ألم يمكن أن تتعرض له وهو الذبح ؟

---

(١) « أتريد أن تميتها موتات ؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها ؟ »

فى الظاهر . . لا شىء !

وفى الباطن . . كل شىء !

إن الذبيحة ميتة ميتة . أرحتها أم لم ترحها . وهى متألمة متألمة ، سواء قطر قلبك رحمة بها أم كنت تذبحها مجرد القلب من المشاعر متلبد الوجدان . وهى لن تلقاك بعد اليوم فتشكو إليك عنفك معها ، إن كنت ممن يفهمون عن هذه الخلائق ، ويجاوبون ما يصدر عنها من الأحاسيس . ولن يضيرها كثيراً ـ وهى مسوقة إلى الفناء الكامل الوشيك ـ إنها ذاقت ـ قبل ذلك بلحظة ـ شيئا من الغلظة أو شيئاً من الجفاء !

إذن فالقيمة العملية بالنسبة للذبيحة . . لا شىء !

ولكن القيمة « العملية » لك أنت . . كل شىء !

وهل ثمة شىء أكبر من أن يكون لك قلب إنسان ؟ !

* * *

وكذلك الشأن فى أمر القتل . .

« فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة » .

والمسلم ـ المخاطب بهذا القول من جانب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يقتل إلا بالحق : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » [1] « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . والذين لا يدعون مع الله إلـها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق » [2] « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس

---

(١) سورة الإسراء [٣٣] .

(٢) سورة الفرقان [٦٣ ـ ٦٨] .

جميعاً »[1] « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » [2] .

لا شبهة إذن فى أن الشخص الذى يقتله المسلم مستحق للقتل . مستحق لأنه كافر ، أو مرتد ، أو قاتل ، أو زان محصن ، أو مفسد فى الأرض ، مثير للفتنة ، خارج على السلطان القائم على شريعة الله .

ولا شبهة فى أن هذا القتل يتم بإذن من الله . بل بأمر منه وتحريض : «وحرض المؤمنين » [3]

ومع ذلك فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمر بإحسان القتل !

ونعود إلى قصة الذبيحة فنراها تنطبق مرة أخرى على القتيل .

إن القتيل لن يستفيد شيئاً من أن تحسن قتلته . فهو مفارق الدنيا . والألم واقع به ما له عنه من محيص . فيستوى أن تحسن أو لا تحسن أو أن الفارق فى الحقيقة ضئيل .

فما القيمة العملية من إحسان القتل بالنسبة للقتيل ؟ لا شىء بطبيعة الحال !

ولكن القيمة الكبرى ـ مرة أخرى ـ هى لك أنت . هى أن يكون لك قلب إنسان !

* * *

ولكن حديث الرسول الكريم لا يقف عند هذين الأمرين : الذبحة والقتلة ، وإنما يسوقهما فقط على سبيل المثال .

---

(١) سورة المائدة [٣٢] .　　(٢) رواه الشيخان .

(٣) سورة النساء [٨٤] .

وبسبب هذين المثالين قد يغلب على الظن أن الرحمة وحدها هى المقصود من الحديث .

ولكن الأمر ليس كذلك . فالمقصود هو « الإحسان » . والرحمة صورة من صور الإحسان .

« إن الله كتب الإحسان على كل شىء » والإحسان ـ هنا ، كما فى الحديث السابق ـ هو الأداء الحسن . الأداء الكامل . الأداء المتقن . الأداء الجميل .

والمثالان المذكوران هما المشير الذى يبين الاتجاه . الاتجاه إلى « الإنسانية » .

إن الخلاصة المستفادة من المثالين : أن الإنسان لا ينبغى أن يندفع مع دوافعه الطبيعية ويترك لها العنان . إنما ينبغى وهو يأخذ فى التنفيذ أن يهذب الوسائل وينظف الأداء ، ليكون جديراً بتكريم اللّه له والخلافة فى هذه الأرض .

ومن ثم فالحديث واسع شامل يشمل كل عمل وكل فكرة وكل شعور .

إنه بنص اللفظ يشمل « كل شىء » . هكذا على الاتساع . وهو يعبر عن فكرة إسلامية أصيلة ، أو فكرتين تلتقيان عند هدف واحد .

أن الإسلام لا يكتفى بأداء الأعمال ـ كل الأعمال ـ على أية صورة ، وإنما يتطلب « الإحسان » فى الأداء .

وإنه لا يقنع من الناس أن يؤدوا ضروراتهم بلا زيادة ، بحجة أنها ضرورة ، وإنما يتطلب الإحسان فى التنفيذ .

المعنى الأول واضح فى قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »[1] وواضح كذلك فى أمر الذبحة والقتلة .

---

(١) رواه البيهقى .

فالمطلوب هو الإتقان الذى تصحبه مشاعر الإنسانية . ويصحبه الإحساس بالله فى قرارة الضمير ، والعمل من أجل خشيته ومن أجل مثوبته ورضاه . «تعبد الله كأنك تراه» .

والمعنى الثانى واضح فى سيرة الرسول وأحاديثه الكثيرة التى تهدف إلى تهذيب النفس ، خاصة وهى تؤدى ضروراتها الغليظة التى ليس عنها محيص .

ونضرب مثالين من أدق الأمثلة وأدلها على ما نريد : قضاء « الضرورة » وشئون الجنس .

« عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : لا يتناجى اثنان على غائطهما ، ينظر كل واحد منهما إلى عورة صاحبه ، فإن الله يمقت ذلك » رواه أبو داود وابن ماجه .

« عن جابر رضى الله عنه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اتقوا الملاعن الثلاث : البراز فى الموارد ، وقارعة الطريق والظل » رواه أبو داود وابن ماجه

وعن أبى أيوب : « إذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره . شرقوا أو غربوا » رواه البخارى .

« وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من لم يستقبل والقبلة ولم يستدبرها فى الغائط كتب له حسنة ومُحى عنه سيئة » رواه الطبرانى .

والأحاديث فى هذا الموضوع كثيرة من أن تورد كلها . وهدفها كلها واحد . هو تهذيب القيام بهذه الضرورة، وإحاطتها بآداب معينة تلطف غلظتها وتخفف من معنى « الضرورة » فيها . إذ تجعلها سلوكاً وأدباً فيه «اختيار» وترفع .

وقد لا تبدو لنا اليوم ـ الدلالة الكاملة لهذه التوجيهات . إذ صار لقضاء

الضرورة أدوات نظيفة ووسائل مهذبة . ومع ذلك فما زال فى المدينة ـ وفى العاصمة ذاتها ـ قوم يقضون حاجاتهم على قارعة الطريق وأمام الناس . أما الريف . . . !

ولكن الدلالة النفسية لا ينبغى أن تفوتنا على أى حال . فالتهذيب فيها واضح . وواضح كذلك محاولة رفع « الإنسان » عن مستوى الحيوان ، حتى وهو يقضى ضرورته التى يشترك فيها مع الحيوان .

أما الجنس فأمره أعجب وأوضح دلالة .

ليس فى الأرض شريعة ولا نظام يعترف بالجنس نظيفاً كريماً كالإسلام .

يكفى أن نذكر فقط أن المسلم وهو يأتى زوجه يذكر اسم الله الكريم . وليس فى الإسلام أقدس من ذكر الله ، ولا أنظف مما يقرأ اسم الله عليه .

والإباحة فيه ـ فى حدوده الشرعية ، أى الزواج ـ أوضح من أن تحتاج إلى دليل .

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم »[1]

« إن فى بضع أحدكم لأجراً . قالوا يارسول الله إن أحدنا ليأتى شهوته ثم يكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »[2] .

وغيرها وغيرها كثير . . .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخذ من هذا المباح بقسط كامل لاشبهة فيه ، واستمتع منه بكل ما يحل لمسلم أن يستمتع به فى هذه الحياة .

ومع ذلك فلينظر كيف كان الأمر . . .

---

(١) سورة البقرة [٢٢٣] .

(٢) رواه مسلم .

تروى السيرة أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يغطى وجه زوجته حين يضاجعها فى الفراش . . وروى الخطيب من حديث أم سلمة أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يغطى رأسه ويغض صوته ويقول لامرأته : عليك بالسكينة .

* * *

الحياء والترفع إلى هذا الحد !

ليس الجنس شهوة الحيوان الجائع الذى لا يملك نفسه أن يندفع هائجا إلى التنفيذ .

وليس غلظة الشبق التى تتلمظ على متاع لذيذ .

وليس نزوة الجسد الفائر التى تختنق فى بخارها عاطفة القلب وإشراقة الروح .

ومع ذلك فإن دعوة الرسول للناس أن يهذبوا العمل الجنسى لم تكن دعوة إلى الزهادة أو إطفاء المتعة أو تبريد حرارتها .

كلا ! على العكس من ذلك . لقد كان يدعوهم إلى المتاع ويحببهم فيه بل كان فى الواقع يوسع مساحته فى النفس ، ويزيد من متعته ، حين يرفعه من لهفة الجسد الخالصة إلى « عواطف » « ومشاعر » « ومودة » .

فقد كان ينهى عن المواقعة دون رسول يسبقها ويمهد لها من مداعبة وعواطف جياشة .

وليست هذه دعوة الذى يريد أن يحرم الناس من المتاع أو يفسده عليهم . بل دعوة من يريد تهذيبهم ورفعهم من مستوى الحيوان إلى مستوى الإنسان ، مع « إحسان » تلذذهم بهذا المتاع ، حتى يصبح متاعاً « جميلاً » تدخل فيه كل عناصر النفس ، ويدخل فيه « الفن » بتعبيره الجميل .

والقرآن يصف الصلة بين الرجل والمرأة على أنها « سكن » و «مودة » :
«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »[1] . وهو تعبير جميل أخاذ يشمل كل صلات الجنس ، ولكنه يشملها فى مستواها الأرفع . فى مستوى « الإنسان » .

* * *

ذلك هو الإحسان فى شئون الجنس . وهو أمر واضح الدلالة على نظرة الإسلام لهذه الأمور .

الضرورة تُقضى . نعم . لا كبت ولا حجران . ولا استقذار للدوافع الفطرية فى ذاتها . ولا الإحساس بالذنب عند الإتيان . ولكنه التنظيف رغم ذلك وتهذيب الوجدان .

والجنس ـ من كثرة ما أبدى فى شأنه فرويد وأعاد ـ مظنة أن تكون الأديان تستقذره وتنفّر منه . والإسلام بخاصة لا يجنح لحظة واحدة لهذا الاستقذار . لكنه ـ وهو يحض على الإحسان فى كل شىء ـ يحض كذلك عليه فى شئون الجنس ، حتى وإن كان يشترك فى الضرورة مع الحيوان .

والدليل القاطع على أن هذه قاعدة عامة فى الإسلام لا يختص بها الجنس وحده ، وإنها تشمل كل تصرفات الإنسان وضروراته ، الدليل على ذلك هو آداب الطعام .

فليس ثمت شك فى أن الطعام طاهر نظيف مباح . بل مأمور به « وكلوا واشربوا »[2] .

---

(١) سورة الروم [٢١] .

(٢) سورة الأعراف [٣١] .

ومع ذلك فله آداب . آداب تهذب تناوله ، وتكسر شراهته ، وترتفع به عن محيط الحيوان إلى محيط الإنسان .

« عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى أن يُتنفس فى الإناء أو ينفخ فيه » رواه أبو داود والترمذى .

« عن أبى جحيفة رضى الله عنه قال : أكلت ثريدة من خبز ولحم ثم أتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فجعلت أتجشأ ، فقال : يا هذا كف عنا من جشائك ! فإن أكثر الناس شبعاً فى الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة » ! رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

فهو الإحسان إذن . وليس المنع والحجران .

* * *

ونحن ـ فى القرن العشرين ـ أحوج ما نكون إلى هذه الحكمة من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

إننا نعيش فى قرن يؤمن بالإحسان فى العمل بمعنى الإخلاص والإتقان . وإن كنا نحن مع الأسف ـ فى العالم الإسلامى الذى تلقى عن نبيه هذا التوجيه ـ ما نزال بعيدين عن هذه الروح .

ونحن نعيش كذلك فى قرن يؤمن بالتهذيب فى كثير من أمور الدنيا : فى تناول الطعام ، وقضاء الضرورة ، والوقوف فى الصف أثناء شراء تذاكر السينما ، والاعتذار المؤدب عن أقل هفوة ، وإزجاء الشكر على أبسط الخدمات .

ولكنه مع ذلك لا يؤمن بالتهذيب فى شئون الجنس . ويقول عنه إنه نفاق !

ولا نقصد بالتهذيب ما كان يصنع الرسول فى فراشه . فذلك مرتقى رفيع لا يطيقه الكثيرون .

ولا نقصد كذلك ما أوصاهم به فى فراشهم من تحويل الجنس إلى مشاعر ومودة وأخذ وعطاء . . فذلك شأنهم إن أرادوا أن يستفيدوا بنصيحة الرسول فلأنفسهم الفائدة ، وهم الذين سيزدادون متعة وهم يوسعون مساحة الجنس فى نفوسهم ، فلا تقف عند متعة الجسد ، بل تصبح علاقة جسد وعلاقة قلب وعلاقة روح كلها فى آن .

وإنما نقصد مستوى أدنى من ذلك وألصق بحياة الجماعة كلها لا بحياة الأفراد .

تلك هى « الفضيلة » بمعناها الاجتماعى . أن يكون الجنس فى حدوده المشروعة ولا يكون نهباً مباحاً للأجساد الظامئة على قارعة الطريق . .

ذلك هو الذى يسمونه نفاقاً فى القرن العشرين !

ولماذا هو نفاق ؟ لأن الجنس « ضرورة » بيولوجية ، فلا شأن له بالأخلاق !

وي !؟ والطعام ليس ضرورة ؟ والملبس ليس ضرورة ؟

فلماذا تحتفلون كل هذا الاحتفال « بآداب » المائدة و « أصول » الملبس ولا تكتفون فيهما بقضاء الضرورات ؟

* * *

ونحن نتحدث هنا عن « الإحسان » ولا نتحدث عن الأخلاق !

نريد أن نرتفع عن مستوى الضرورة . نريد أن نتذوق الآفاق العليا التى يرفعنا إليها الإسلام .

نريد أن نتذوق طعم « الإنسانية » فإنه والله طعم جميل حين تتوجه له النفس ، وحين يؤمن الإنسان أنه إنسان !

الجمال فطرة « الطبيعة » . فطرة الحياة التى خلقها الله .

والحياة لا تكتفى بقضاء الضرورة ، ولكنها تهدف دائماً إلى الإحسان فى الأداء .

أرأيت هذه الزهرة الجميلة الفياحة الشذى المتناسقة الألوان ؟

أتظن أن ذلك « ضرورة » ؟

قالوا : لتجتذب إليها النحل فينتج منها العسل غذاء وشفاء للناس ! وتساعد كذلك فى تلقيح النبات !

فهل تظن ذلك ؟ هل من « الضرورة » بالقياس إلى النحل أن يكون فى الزهرة كل هذا الجمال ؟

كلا والله ! فالنحل خَلْق متواضع ! وإنه ليحط على الزهرة الرائعة التناسق كما يحط على الزهرة العادية الجمال

فليس جمال الزهرة إذن ضرورة ! وكل الأهداف « البيولوجية » يمكن أن تتم فى أبسط زهرة كما تتم فى أجمل الأزهار .

ورأيت هذه « الطبيعة » ؟

رأيت حمرة الشفق المبدعة ورأيت جمال الصبح الوليد ؟

رأيت روعة الجبال تبهر الأنفاس وتهز الوجدان ؟

والبحر الممتد إلى غير نهاية منسرب الموج ، تراه فى الليل الساكن كأنما تعمره الأطياف . . أو الأشباح ؟

والليلة القمراء . . هل « ذقتها » ؟ و « ذقت » طعم السحر فى ضوئها ، وظلها ، وأطيافها السارية وحديثها المهموس ؟

هل تظن ذلك ضروة ؟

وأين هى الضرورة فى ذلك كله ، والحياة ممكنة ومستطاعة بغير هذا الجمال؟

ورأيت هذا الوجه الرائع ؟

هاتان العينان الحالمتان اللتان يطل منهما عالم عميق الأغوار . . تلك التقاطيع المنسقة . . هذا المعنى المعبر . . تلك « الروح » التى تطل من وراء القسمات ؟

تظن ذلك ضرورة ؟ وما الضرورة ؟

أليست كل العمليات « البيولوجية » من طعام وشراب وتنفس تتم فى أقبح وجه وأجمل وجه على السواء ؟

بل . . نداء الجنس ذاته . ألا يتحقق فى كل أنثى وكل ذكر بصرف النظر عن ذلك الجمال ؟

كلا . إنه ليس « ضرورة » . . وإنما هو « جمال » .

هو « إحسان » فى الأداء لا مجرد الأداء !

تلك فطرة الحياة كما خلقها الله . . فطرة « الطبيعة » .

والإسلام دين الفطرة . . .

يلتقى مع ناموس الحياة الأكبر . لأنه منزل من عند الله خالق الحياة ، وخالق الفطرة التى يسير عليها الكون والحياة .

لذلك لا يكتفى الإسلام من الإنسان بمجرد أداء الضرورة . لأنه حينئذ يكون متخلفاً عن الحياة ، ناشزاً عن فطرتها ، متأخراً إلى الوراء .

وهو الحياة فى أعلى آفاقها ـ يريد أن يكون الإنسان واصلاً إلى الحياة ، منسجماً معها ، مساوقاً لها ، ملتقياً معها فى كل اتجاه .

لذلك يعمد إلى تهذيب النفوس . يدخل فى أعماقها ، ويسكن فى أطوائها ، ويوجهها من باطنها . يوجهها إلى الجمال . إلى الإحسان . الإحسان فى كل

شيء . الإحسان فى الأعمال والإحسان فى الأفكار والإحسان فى المشاعر.

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء » . .

وحين تتجه النفس إلى الإحسان . حين تتهذب المشاعر وينظف السلوك . حين تخرج الضرورة عن قهرها القاهر فتصبح سلوكاً مهذباً « تختاره » النفوس، وتتفاضل فى أدائه . .

حينئذ يلتقى الإنسان مع الكون والحياة . .

يلتقى معهما فى نظرة واحدة شاملة رفيعة . اسمها الإحسان . أو اسمها الجمال .

والله جميل يحب الجمال .

وَتَبَسُّمكَ فِي وَجهِ أَخِيكَ صَدَقة

« عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس . قيل : يارسول الله من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟ فقال : إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتميط الأذى عن الطريق وتسمع الأصم وتهدى الأعمى وتدل المستدل عن حاجته . وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف . فهذا كله صدقة منك على نفسك . رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى مختصراً . وزاد فى رواية : وتبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم من طريق الناس صدقة ، وهديك الرجل فى أرض الضالة لك صدقة »[1]

* * *

هذا الحديث العجيب لا يملك الإنسان أن يمر به دون أن يقف عنده لحظات يتدبر بعض معانيه .

وإن له لإيحاءات شتى ، يدق بعضها ويلطف ، حتى يصل إلى أعماق النفس ، إلى قرار الوجدان ، فيهزها هزاً ، ويوقع على أوتار القلب لحناً صافياً مشرقاً جميلاً يأخذ بالألباب .

---

(١) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٩٦ رقم ٧ .

وسنختار هنا من المعانى الكثيرة التى يوحى بها الحديث معنيين رئيسيين : أولهما تفجير منابع الخير فى النفس البشرية ، وثانيهما : ربط المجتمع برباط الحب والمودة والإخاء . وقد نلم ببعض المعانى الأخرى فى أثناء الحديث .

* * *

الصدقة فى مفهومها التقليدى نقود وأشياء محسوسة يساعد بها الغنى الفقير، ويمنحها القوى للضعيف . وهى بهذا المعنى ضيقة المفهوم جداً ، وأثرها فى حياة المجتمع محدود . ولو أنها ظلت قروناً طويلة مظهراً من مظاهر التكافل الاجتماعى ، ورباطاً من روابط المجتمع ، وأداة لتطهير الأغنياء من الشح ، وإعانة الفقراء على الحياة . .

وبصرف النظر عن هدف الإسلام الأصيل فى أن يكتفى الناس بعملهم الخاص فلا يحتاجون للصدقات ـ ذلك الهدف الذى تحقق فى عهد عمر بن عبد العزيز إذ يقول يحيى بن سعيد : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيراً، ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس . . »

بصرف النظر عن هذا الهدف النهائى ، فقد كانت الصدقات وسيلة احتياطية فى المجتمع ، طالما أن الفقر موجود ، وإلى أن تتمكن الدولة ـ كما تمكنت فى عهد عمر بن عبد العزيز ـ من إغناء الناس عن غير هذا الطريق .

ولكن الحديث النبوى يخرج بالصدقة من معناها التقليدى الضيق . من معناها الحسى ، إلى معناها النفسى . وهنا تنفتح على عالم رحيب ليست له حدود .

كل خير صدقة . . وعلى كل امرئ صدقة . .

هكذا فى شمول واسع لا يترك شيئاً ولا يضيق عن شىء !

كل خير صدقة . أو ليس ذلك حقاً ؟!

ومن أين تنبع الصدقة التقليدية بمعناها الحسى الضيق الحدود ؟

أو ليست تنبع من معين الخير فى النفس البشرية ؟ بلى ! إن هذا هو معينها الوحيد . وإلا فهى رياء كاذب ، وهى دنس لا يصدر عن نفس نظيفة . وليس ذلك بطبيعة الحال هو المقصود .

فإذا كانت الصدقة تنبع من معين الخير ، فإن حديث الرسول الكريم لا يزيد على أن يرجع مباشرة إلى هذا المعين ، يستجيشه ويستدره ، ليتفتح ويفيض ، ويتدفق فى كل اتجاه .

الخير هو معين الصدقة . فليكن كل خير صدقة ! كل ما ينبجس من هذا المعين . كل ما يخرج من هذا النبع الطاهر النظيف ، هادفاً إلى الخير محققاً له فى واقع الحياة .

والصدقة ما هى ؟ أليست « إعطاء » ؟

بلى ، إنها كذلك فليكن إذن كل إعطاء صدقة ! حتى تبسمك فى وجه أخيك . . صدقة !

إنه ذات المنبع ؛ وهى عملية نفسية واحدة فى جميع الأحوال !

إن « الحركة » النفسية التى تحدث فى داخل النفس وأنت تهم بإعطاء القرش للرجل المحتاج ، أو تعين عاجزاً على اجتياز الطريق ، أو تساعد إنساناً على رفع حمل . . إنها هى ذاتها التى تحدث فى نفسك وأنت ترفع حجراً من الطريق حتى لا يعثر فيه الناس ، وهى ذاتها التى تدفع الابتسامة إلى وجهك حين ترى وجه أخيك . .

إنك لو جسّمت مشاعر النفوس ، فتخيلتها جسوماً متحركة . . لرأيت صورة واحدة فى كل مرة : صورة « النفس » وهى تحرك يدها من الداخل حركة الإعطاء !

خذ ! خذ هذا القرش . أو خذ هذه المعونة . . أو خذ هذا الشعور !

منبع واحد . وحركة واحدة فى جميع الأحوال .

ودافع واحد . .

فالذى يدفعك إلى إعطاء الصدقة للمحتاج هو شعور « إنسانى » . وقد يكون من الصعب أن تحدد معنى لهذا اللفظ الدقيق . فهو فى بساطته وشموله معجز كالإنسانية !

قد يكون شعورك واضحاً : هذا أخوك فى الإنسانية . تحس بينك وبينه هذه الأصرة التى تربط أفراد الجنس الواحد ، وتقرب بينهم ، وتدعوهم إلى التعاون الوثيق .

وقد يكون شعورك مبهماً . وجدان غامض . خيوط خفية تنبع من قلبك حتى تصل إلى قلبه ، فتربط بينهما برباط دقيق . أو هزات كالهزات المغناطيسية أو الكهربائية التى تنتشر فى الجو ، حتى « يلتقطها » المستقبل من بعيد .

هذا الشعور الإنسانى ـ الواضح أو المبهم ـ الذى يدفعك إلى إعطاء الصدقة للمحتاج ، أليس هو ذاته الذى يحنيك على الحجر فتلتقطه بعيداً عن أقدام المارة ؟ أو ليس هو كذلك الذى يشيع البسمة فى وجهك حين تلقى الناس ؟!

هى عملية واحدة فى داخل النفس . . ولكننا لا ندركها دائماً على حقيقتها .

والرسول الكريم يلفتنا فى حديثه إليها . يلفتنا إلى هذه الحقيقة النفسية

الواحدة التى تكمن وراء كل عمل من أعمال الخير . لنعرف أنه الخير فى منبعه وإن تعددت صوره وزواياه .

ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم لا يريدنا أن « نعرف » فحسب !

فالمعرفة التى لا تنتهى إلى شىء ليست هدفاً من أهداف الإسلام ولا من أهداف الحياة العملية !

كل شىء ينبغى أن تكون له غاية . وغاية الغايات فى الأرض أن يكون الخير هو المسيطر على حياة البشرية . فالخير هو كلمة الله . وكلمة الله هى العليا .

ومن هنا تلتقى الأرض والسماء ، والدنيا والآخرة فى رصيد الإسلام .

والرسول الكريم يريد أن « يعودنا » على الخير ، لا أن « يعرفنا » إياه فحسب .

« وعلى كل امرئٍ صدقة . . » .

إنه يريد كلاً منا أن تتحرك نفسه بالخير . يريد أن يستثير تلك الحركة الداخلية التى تمد يدها بالعطاء . والحياة عادة . والعادة تعدى من نفس إلى نفس . بل تعدى من شعور إلى شعور فى باطن النفس !

حين تتعود النفس أن تستيقظ ، أن تنهض من سباتها وتتحرك ، وتمد يدها من الداخل بعمل أو شعور . حين يحدث هذا مرة ، فسوف يحدث مرة بعد مرة . وستتعدد صور الإعطاء حتى تشمل من النفس أوسع نطاق . . حتى تشمل فى الواقع كل تصرف وكل شعور .

وتبدو حكمة الرسول فى توسيع مدى الخير ، وتعديد صوره وأشكاله ، وتبسيطها كذلك حتى تصبح فى متناول كل إنسان !

فلو كانت « الصدقة » أو الخير قاصراً على المحسوسات والأموال ،

فسيعجز عنها كثير من أفراد البشرية . وتبقى ينابيع ثرة فى باطن النفوس ، لا يستثمرها أحد ، ولا يستنبط من معينها الغزير .

ولكن اليد الحكيمة الماهرة تعرف كيف تسيل الخير من هذه النفوس . لمسات رفيقة حانية من هنا ومن هناك تفتح المغلق وتبعث المكنون .

والرسول الكريم يلطف فى معاملة البشرية كالأب الحنون يلطف مع أولاده، وهو يخطو معهم خطوة خطوة فى الطريق . إنه ييسر لهم الأمر . ويوحى إليهم أنه فى مقدورهم بلا تعب ولا مشقة . وحينئذ يصنعونه ولو كان فيه مشقة !!

تلك أفضل وسائل التربية وأحبها إلى النفوس .

وهى ليست ضحكاً على الناس ولا استدراجاً لهم ! حاش لله !

إنها كلها حقيقة . فالخير نبع واحد داخل النفس . وكل صوره صورة واحدة .

ولقد نظن ، لأول وهلة ، أن بعض هذه « الصدقات » أهون من أن تكون صدقة . وأنها لا يجوز أن تدرج مع غيرها فى سلك يشمل الجميع .

وقد يكون أقرب شيء إلى هذا الظن قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وتبسمك فى وجه أخيك صدقة . وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة .

ومع ذلك فجربها إذا أردت . أو تتبعها فى محيط الناس . .

إن تبسمك فى وجه أخيك ، الذى يبدو لك هيناً حتى ما يصح أن يوضع فى الصدقات . . لهو أشق شيء على النفس التى لم تتعود الخير ولم تتجه إليه !

هناك ناس لا يتبسمون أبداً ، ولا تنفرج أساريرهم وهم يلقون غيرهم من الناس !

إنهم شريرون أو فى نفوسهم مرض . وينابيع الخير مغلقة فى نفوسهم وعليها الأقفال .

وهناك ناس يبخلون عليك بقطرة من ماء ! الماء الحقيقى لا على سبيل المجاز !

إن المسألة ليست البسمة ولا نقطة الماء . إنها الإعطاء . إنها الحركة التى تتم فى داخل النفس . إنها فتح القفل المغلق . أو تحرك اليد النفسية وانبساطها إلى الأمام . .

عملية واحدة فى جميع الحالات . . إما أن توجد ، فتقدر النفس على الخير. تقدر على الإعطاء والمودة . وإما ألا توجد ، فيستوى الهين والعظيم ، وتغلق النفس عن جميع الصدقات .

* * *

والرسول المربى لا يريد أن يعرفنا بمنابع الخير فحسب ، ولا أن يعودنا على الخير فحسب . ولكنى ألمح من وراء تعديد الصدقات ، وتبسيطها حتى تصبح فى متناول الجميع ، معنى آخر . .

الإعطاء حركة إيجابية . ولذلك قيمة كبرى فى تربية النفوس .

فالنفس التى تتعود الشعور بالإيجابية نفس حية متحركة فاعلة . بعكس النفس التى تتعود السلبية فهى نفس منكمشة منحسرة ضئيلة .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد للمسلم أن يكون قوة إيجابية فاعلة ، ويكره له أن يكون قوة سلبية حسيرة .

والشعور والسلوك صنوان فى عالم النفس ، كلاهما يكمل لآخر ويزيد فى قوته .

ومن هنا حرص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يصف حتى الأعمال الصغيرة والهينة بأنها صدقة . بأنها إعطاء .

مرة أخرى كالأب مع أبنائه . .

فأنت حين توحى لطفلك أن الدور الذى قام به فى العمل دور هام ومثمر، وقد أدى إلى نتيجة ، فإنك تشجعه على مزيد من العمل ومزيد من الإنتاج . أما إذا رحت تصغر من شأنه ، وتشعره أن أعماله تافهة بالقياس إلى المطلوب منه ، فإنك تشجعه على الانحسار داخل نفسه ، والانصراف عن كل عمل يحتاج إلى مجهود .

والرسول يشجع الناس على الإحساس بإيجابيتهم ، حتى فى الأعمال التى قد تبدو صغيرة فى ظاهرها ، ليحسوا أن كيانهم يتحقق فى عالم الواقع ، فى عالم السلوك . فيزيدهم ذلك إقبالاً على العمل فى ميدان الخير ، ويشجعهم على الصعود باستمرار .

وفى تسمية هذه الأعمال « بالصدقات » أمر آخر من وراء التعبير .

فالصدقات بمعناها الحسى الضيق ، تقسم الناس آخذين فى جانب ومعطين فى جانب . وقد توحى إلى الآخذين الشعور بالضآلة والضعف ، وتغرى المعطين بالخيلاء والغرور .

وذلك تقسيم للمجتمع سيىء غاية السوء .

ولكن توسيع نطاق الصدقات حتى تشمل كل شىء وكل عمل متجه إلى الخير ، يلغى التقسيم الأول ، ويتيح لكل إنسان ـ بصرف النظر عن فقره وغناه ـ أن يكون معطياً واهباً للآخرين . ومن ثم يجعل الناس كلهم ـ بحركة واحدة ـ آخذين ومعطين على قدم المساواة ، وشركاء فى ميدان واحد فسيح !

وذلك ولا شك منهج بارع فى تربية النفوس ، فوق أنه يقرر مفهوماً آخر من مفاهيم الإسلام الأصيلة : أن القيم التى تحكم الحياة ليست هى القيم المادية وحدها . أو الاقتصادية وحدها . وإنما القيم الشعورية والوجدانية كذلك . بل هذه الأخيرة هى الأصل الذى تقوم عليه علاقات البشرية !

* * *

وقد افتتن الناس دائماً بالقيم المادية وحسبوها قوام الحياة . القدماء فى ذلك والمحدثون سواء . وحين تنطمس بصائر الناس عن منابع الخير الحقيقية ، وتنحسر نفوسهم عن حقيقة الكون الواسعة ، فإنهم لايرون إلا القيم المادية ، ولا يدركون إلا ما تدركه الحواس. ولكن الإسلام حرص على توسيع الحياة وتجليتها فى صورتها الحقيقية . لم يهمل عالم المادة ، ولم يهمل ضرورات الحياة . بل أعطاهما عنايته الكاملة كما يتضح فى التفصيلات الدقيقة التى يشملها الشرع ، والإضافات الدائمة التى أضافها الفقه الإسلامى على مدى القرون ولكنه لم يقف عند هذه الأمور وحدها ، لأن الحياة فى واقعها لا تقف هناك . وإنما تتعداها إلى آفاق أوسع وأرحب ، وإلى مستويات أكبر وأعلى .

والإسلام دين الحياة الكامل ، ومن ثم يشمل الحياة كلها فى جميع الآفاق وجميع المستويات ، على نظافة فى الأداء ونظافة فى السلوك .

إنه كصاحب الأرض الخصبة لا يزرع منها جانباً ويهمل الجانب الآخر ، أو يدعه تنبت فيه حشائش السموم . إنه يحس بالقيمة الكبرى لتلك الأرض الثمينة ، ويحس بالخسارة التى تنشأ من تعطيلها أو إهمال بعضها ، ومن أجل ذلك ينقب فى كل مكان فى النفس حتى يمكن أن تنبت فيه نبتة الخير ، فيزرعها ويجنى من زرعها الثمار .

وحين يحرص الإسلام على أن يظل ينبوع الخير فى النفس الإنسانية ثرًّا يفيض

بالخير ولا ينضب ، فإنه يضمن أن تقوم بين البشر روابط أمتن بكثير وأوثق من تلك التى يمكن أن يقيمها الاقتصاد أو تقيمها العلاقات المادية . بل يضمن أن تكون رابطة حية وخيرة ، لا يأكلها الحقد ، ولا تسرى إلى القلوب مع «تنظيماتها» الصلادة والجفاف .

* * *

وأى رابطة يمكن أن تربط القلوب أقوى من المودة والحب ؟

« . . . وألّف بين قلوبهم . لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألّف بينهم »[1].

إنها هبة الله . .

والنعم المادية أو الاقتصادية كذلك هبة الله .

ولكن الآية تضع كلاً فى مكانه فى ميزان القلوب وميزان الحياة !

لا يكفى المال وحده لتأليف القلوب . ولا تكفى التنظيمات الاقتصادية والأوضاع المادية .

لا بد أن يشملها ويغلفها ذلك الروح الشفيف المستمد من روح الله . ألا وهو الحب .

الحب الذى يطلق البسمة من القلب فينشرح لها الصدر وتنفرج القسمات . . فيلقى الإنسان أخاه بوجه طليق .

ذلك الحب هو الذى يصنع المعجزات . هو الذى يؤلف القلوب . هو الذى يقيم البناء الذى لا يهدمه شىء ولا يصل إليه شىء .

---

(١) سورة الأنفال [٦٣] .

« جاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعرابى يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال : لا ولا أجملت ! فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا . ثم دخل منزله فأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً . ثم قال . أحسنت إليك ؟ قال نعم . فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيراً . فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال : نعم ، فلما كان الغداة جاء، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن هذا الأعرابى قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى . أكذلك ؟ فقال الأعرابى : نعم . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال ـ صلى الله وعليه وسلم : إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل له ناقة وشردت عليه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هوناً ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها . وإنى تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار !

هذا الدرس العجيب من حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سلوكه العملى ـ يشرح لنا القيم التى أودعها أحاديثه المروية فى هذا الاتجاه .

قد يكون المال الزائد هو الذى أرضى الأعرابى ـ فى ظاهر الأمر ـ بعد ما كان ساخطاً على العطاء القليل .

ولنفرض جدلاً أنه كذلك .

ولكن فلننظر إلى الأمر من جانب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جانب المعطى ـ أكان يزيد فى عطاء الرجل لو لم يكن هذا المعين الفياض بالرحمة والمودة والحب ؟

ولننظر إلى الأمر خاصة بعد أن قال الأعرابى قولته المنكرة الجاحدة . . أوَقد كان غير هذا القلب الكبير وهذا الروح الشفيف يمكن أن يقبل القولة الجارحة ويرد عليها بعطاء جديد؟

إن الصدقة « المادية » الزائدة ليست هى حقيقة الموقف ! إنها مجرد التعبير المادى المجسم للشعور السامق النبيل . إنها ترجمة للأصل وليست هى الأصل! إنها الصدى والقلب هو الحقيقة !

هذا القلب هو الذى يربيه الرسول الكريم هذه التربية المبدعة ليقيم عليه رباط البشرية .

وما نريد أن ندخل حقائق « العلم » فى أمر روابط البشرية ! ولكننا ـ برغمنا ! لا نجد محيصاً من الإشارة إلى هذه الحقائق التى غيرت كل المفاهيم «المادية » التى سادت تفكير البشر فى القرون الأخيرة . فقد أثبت العلم أنه ليست هناك « مادة » ! إنما الحياة كلها « قوى » و « روابط » !

الذرة التى كان يظن من قبل أنها مادة راسية مستقرة ملموسة ظهر أنها كهارب ! أنها طاقة كهربائية سالبة وموجبة . وأن الرباط الذى يشد بعضها إلى بعض هو الجاذبية . .

وذلك هو كل بناء الكون !

لا جرم يكون كذلك هو بناء البشرية !

بناؤها الحق هو هذه القلوب ، وما بينها من ارتباط .

ليس « المادة » . وليس « الاقتصاد » ! ليس شيئاً مما تقف عنده الحواس وتظنه الحقيقة ! وإنما هو شىء أعمق وألطف وأدق . .

الحب رباط البشرية . والقلوب هى طاقتها .

وكما تصطدم الطاقات فى الذرة فتضطرب وتتناثر حين تفقد رباطها القوى يشدها بعضها إلى بعض ، حين تفقد رباط الجاذبية ، كذلك تصطدم القلوب فى الحياة البشرية فتتنافر وتتناثر حين تفقد رباطها القوى الذى يشدها بعضها إلى بعض . . حين تفقد المحبة .

والإسلام دين الله .

الله الذى خلق الخلق وهو أعلم بمن خلق .

وهو دين الفطرة . الدين الذى يساير الفطرة أجمل مسايرة ، ويصل من ذلك إلى أجمل النتائج .

والإسلام هو الذى يجعل رباط المحبة هو الرباط الأول والأوثق فى حياة البشرية ، ويقيم الوشائج كلها ـ من مادية واقتصادية واجتماعية وفكرية وروحية ـ على هذا الأساس المتين .

« وألف بين قلوبهم » . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً»[1] .

ورسول الإسلام ـ وهو الآية البشرية الكونية الكبرى ـ يدرك بفطرته الملتقية مع فطرة الكون الأعظم ، وبما أدبه ربه فأحسن تأديبه ، أن الرحمة والمودة والإخاء هى وحدها التى يمكن أن يقوم عليها البناء الحى القوى المتماسك ، فيدعو إلى الحب : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2] ويجلو القلوب لتفيض بالحب ، ويعلمها الوسيلة لكى تُحِبَّ وتُحَب : أن تلقى أخاك بوجه طليق !

---

(١) سورة آل عمران [١٠٣] .　　(٢) رواه البخارى ومسلم .

وإن هذه الابتسامة على الوجه الطلق لتعمل عمل السحر !

جربها !

جرب أن تلقى الناس بوجه طلق وعلى فمك ابتسامة مشرقة . ولن تندم على التجربة قط !

إنها لتستطيع ـ وحدها ـ أن تفتح مغالق النفوس وتنفذ إلى الأعماق . تنفذ إلى القلب ! إلى الطاقة المكنونة فى الكيان البشرى ، فتربط بينها وبينك برباط الجاذبية !

حينئذ تصير قطعة من الكون الأعظم ، دائرة معه فى فلكه الفسيح ، لأنك تلتقى بفطرتك الصحيحة مع فطرته الحقة ، فتلتقيان فى الناموس الكبير!

وحينئذ ترى الله !

فهذا هو الطريق !

... فقليله حرام

« ما أسكر كثيره فقليله حرام » .[1]

لعل ظاهر اللفظ يوحى بأن الخمر وحدها هى المقصودة بالحديث .

ولكنى ألمح أنه قاعدة تشريعية شاملة ، تنطبق على الممنوع كله والحرام كله، تنطبق على الخمر والربا ، والسرقة والغصب ، والغمز واللمز ، والغيبة والنميمة ، والكذب والنفاق . . وعلى الجريمة الخلقية خاصة !

وقليل الخمر لا يسكر . وقليل كل شىء لا ضرر فيه . .

ما شربة خمر ؟ ما كأس بين الحين والحين ؟ فى الحفلات مثلاً والأفراح ؟!

وما كذبة بين الحين والحين بيضاء أو غير بيضاء ؟

وما القروش القليلة يختلسها من مبلغ ضخم لا يمكن أن تؤثر فيه ؟

وما الضرر فى قليل من النفاق تسير به الأمور و « تشحم » عجلة الحياة فلا يقع فيها احتكاك ولا صدام ؟

وما نظرة عابرة إلى فتاة ؟

أو ابتسامة ؟

أو كلمات ؟

أو شىء قليل من المداعبة لا يبلغ حد الجريمة . . قبلة أو ضمة أو ما أشبه؟

---

(١) رواه أبو داود .

فلتكن الجريمة !

جريمة عابرة . . تتم فى الظلام ، خلسة ، لا يعلم بها أحد ، ولا تؤثر فى خط سير الحياة . . هل تنهد الدنيا إذا حدث ذلك أو تنهار الأخلاق ؟

كذلك تبدو الأمور للوهلة الأولى . . سهلة هينة لا تستلزم التشديد ولا توجب الاهتمام !

ومع ذلك فهى حكمة بالغة تلك التى نطق بها الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، ودراية عميقة بالنفس البشرية ، ونظر بعيد لا يقف عند الجزئية الصغيرة ، ولا عند الفرد الواحد ، ولا الجيل الواحد من الأجيال !

إنها النظرة الفاحصة الشاملة التى تأخذ فى حسابها الفرد والمجتمع ، والإنسان كله على امتداد حياته فى تلك الأرض .

نظرة القلب المدرك البصير الذى ينفذ إلى صميم الإسلام فيستلهم روحه العميقة الدقيقة ، وتتفتح له مغاليق الحكمة وغوامض الأسرار .

ومن غير رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أجدر بأن يدرك روح الإسلام النقية الصافية ، ويترجم عنها ، وهو نبى الله وصفيه ، الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وشرح صدره . . شرح صدره للإسلام ، وللحق الماثل فى الكون الكبير ، فكان هو النموذج الكامل للإسلام ، والقمة للبشرية ؟ !

* * *

الإدمان أول شىء يخطر على البال حين تذكر الخمر ، ويذكر القليل فيها والكثير

والإدمان ـ كما تثبت التجربة العلمية ـ خطر ماثل أمام البشرية حين تبيح لنفسها الخمر ، وحين تبيح لنفسها أى داء من أدواء المجتمع الكثيرة المتعددة .

وهو فى الخمر يرتكز على أساس عصبى - جسمانى - وعلى أساس نفسى كذلك [1] .

كل شراب - بل كل دواء - ذى تأثير معين على الأعصاب ، منبه أو مسكن أو مثير أو ملطف ، يفقد أثره على الأعصاب بعد قليل ، لأنها تتحصن ضده وتتبلد عليه . ويحتاج الإنسان - لا محالة - إلى زيادة الجرعة أو تغيير « الصنف » لكى يحس له بمفعول .

هذا من الوجهة العصبية . أما من الوجهة النفسية فهناك العادة . والنفس تستريح لما تتعود عليه - كذلك فطرها الله لحكمة هو عالمها - وتشتاق لما تعتاده من الحركات والأفعال والأفكار والمشاعر ، فيلتقى تأثر الأعصاب ومتعة النفس على الأمر الواحد فى اللحظة الواحدة ، فيتجاوبان ، ويدفع كل منهما الآخر ويقويه !

وهذا أمر ينطبق على كل شىء ! حتى لقمة الخبز وجرعة الماء ، وضجعة السرير وجلسة المقعد ، وحديث الإنسان إلى نفسه أو حديثه إلى الناس ، ورؤية فلان أو صحبة مكان أو ألف شىء من الأشياء !

ولكن بعض هذه الأمور تداوى نفسها بنفسها فتكون بمنجاة من الإدمان - بمعنى الإسراف المضر - كما أن بعضها لا يصل إلى حد الخطر ولو وصل إلى الإدمان !

الطعام والشراب عادة يتعودها الجسم وتتعودها النفس ، من حيث الكم والأنواع والمواعيد . ولكنها - فى الحالة السوية - تجد الفرامل الضابطة فى إحساس الشبع وامتلاء الفراغ المحدود .

---

(١) انظر فصل « النفس والجسم » من كتاب « فى النفس والمجتمع »

ومع ذلك فقد تنحرف إلى شَرَهٍ نَهِمٍ مسعور !

ولكنها ضرورة ! لا تقوم الحياة إلا بها فى حالتها المعقولة السوية .

ومن ثم أبيح القدر المعقول ، وحرم الزائد عن المعقول : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا »[1] ولم يجعل التحريم بتشريع لأن ذلك مستحيل . وإنما ترك أمره للتوجيه والتهذيب وخشية الله وتقواه .

والنوم والراحة عادة من حيث المواعيد والمقدار والطريقة والوسيلة ـ مترفة أو غير مترفة ـ ولكنها ـ فى الحالة السوية ـ تجد فراملها الضابطة فى النشاط الذى تحدثه ، والرغبة الذاتية فى تصريف هذا النشاط .

ومع ذلك فقد تنحرف إلى كسل وتراخ وفتور .

ومن ثم أبيح القدر المعقول ـ إن لبدنك عليك حقاً ـ وحرم الترف والتكاسل والقعود .

ورؤية الناس ومخالطتهم عادة . ولكن لها ضوابطها الذاتية التى تمنع الإسراف فيها ـ فى الحالة السوية ـ وهى رغبة الإنسان فى التقلب بين نزعته الفردية ونزعته الجماعية ليرضى هذه وتلك .

وإلف الأمكنة والأشياء عادة . . ولا ضرر فى الإدمان عليها ـ ما دامت فى ذاتها نظيفة ـ ومع ذلك فالملل ، وهو عنصر بشرى أصيل ، يحد بطريقة طبيعية من الإدمان عليها والإسراف فيها . .

ولكن الخمر وغيرها من الأدواء ليس كذلك !

حين يحدث الإدمان فليست له ضوابط . وكل شارب عرضة للإدمان ، لأن الأعصاب ليست لها حصانة من تأثير السموم !

---

(١) سورة الأعراف [٣١] .

ومع ذلك فسنفترض أن أغلبية من الناس تستطيع أن تشرب دون أن تبلغ حد الإدمان ـ وهو قول غير صحيح فى واقع الأمر ـ فمع ذلك ليس هذا بيت القصيد !

بيت القصيد هو الأجيال القادمة . . .

فى مسألة الخمر بالذات ، يقول الطب إن أبناء السكارى يولدون وفيهم استعداد موروث لشرب الخمر ، ينتقل إليهم عن طريق النطفة قبل أن يملكوا لأنفسهم القياد ! ومن ثم يصبحون فى الكبر مدمنين !

ويقول علم النفس إن أبناء السكير يصابون باضطرابات نفسية وعصبية عنيفة تؤثر فى مستقبل حياتهم . فالولد ينظر إلى شخصية والده على أنه المثل الأعلى الكامل الذى يتلبس به ويحاول أن يحتذيه . فإذا رأى فى سلوكه خللاً فإن ذلك يحدث فى داخل نفسه انقساماً بين شخصين كانا من قبل مؤتلفين بل متلابسين : هما شخصيته وشخصية والده . ومن ثم يحدث نزاع داخلى عنيف ، ينتهى إما بانطواء الولد على نفسه واعتزاله الحياة الحية المتحركة ، إما ببروزه فى هيئة مجرم صغير ، يحطم كل مقدس ، ويلوث كل نظيف .

أما الفتاة فيصيبها صراع من نوع آخر ينتهى بها إلى كراهية الرجال جميعاً ، والنفور فى المستقبل من الزواج ، وما يصاحب ذلك من عقد جنسية مختلفة ، أو ينتهى إلى انحرافها الخلقى ووقوعها فى مهاوى الرذيلة .

وسنفترض مرة أخرى أن ذلك كله لن يقع ـ وهو أمر غير صحيح !

سنفترض أن النطفة لم تنقل إلى الجنين عدوى الخمر وهو واغل فى الظلمات الثلاث[1] . وسنفرض أن الوالد لم يطلع أولاده على سوء منه ، فلم يعلموا أنه

---

(١) « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » سورة الزمر [٦]

يشرب الخمر ولم يحدث فى نفسهم الاضطراب .

يبقى بعد ذلك كله شيء لم تستطع اتقاءه الأجيال !

ما موقف الأب الذى يعاقر الخمر حين يعلم أن أبناءه قد وقعوا فيما وقع هو فيه من قبل ؟

أيزجرهم ؟ أم يرخى لهم العنان ؟

ولماذا يا ترى يزجرهم وهو ـ بينه وبين نفسه ـ لا يؤمن بأن هناك ضرراً فى الأمر ؟ بل إنه ليؤمن أن تجربته الشخصية خير شاهد على ما يقول ! ها هو ذا يشرب . فماذا حدث له ؟ لم يبلغ حد الإدمان . لم يفصل من عمله نتيجة التأخر فى الصباح أو الإهمال وشرود البال . لم يؤثر الشرب فى مركزه الاجتماعى . لم تتلف أعصابه ولم تفسد قدرته على التفكير . وإنما كلها كأس بين الحين والحين . . فى الحفلات وفى الأفراح !! فما الضير على الأولاد إذا ساروا فى نفس الطريق ، وعند كبرهم « يعقلون » وتسير الأمور . . . ؟!

هنا موطن الخطر لا يدركه الشارب فى أول جيل !

إنه ينسى ! ينسى أنه هو شخصياً قد نشأ فى بيئة محافظة تستنكر الخمر وتَنْفُر منها وتُنَفِّر منها ، وأنه نشأ وفى عقله الباطن فرامل قوية ـ مستمدة من هذه البيئة المحافظة ـ هى التى حالت بينه ـ دون أن يشعر ـ وبين الإسراف والإدمان . فى أعماق نفسه شخص معنوى أو شخص مجسم ، يمسك له العصا ويحذره ، وينهال عليه ضرباً إذا تجاوز الحدود ـ فى صورة تقريع الضمير.

وصحيح أن هذا الشخص لم يبلغ من القوة فى نفسه أن يمنعه البتة ، ولم يستطع أن يقفل عليه الطريق ولكنه مع ذلك موجود لا شك فى وجوده . وله الفضل كله فى الوقوف به عند درجة معينة لا تصل إلى الإدمان البغيض .

أما الأبناء فأين هذا الشخص فى نفوسهم ؟ من غرسه فى أخلادهم وهم صغار ؟

أبوهم ؟ أو المجتمع الذى يسرح فيه آباء كأبيهم ؟

كلا ! لقد وجدت القدوة السيئة وانتهى الأمر ، ثم لم توجد الزواجر التى منعت الجيل الأول من الإسراف !

أو قد توجد ، ولكنها أضعف من الزواجر فى أول جيل . .

ومن ثم يشرب الأبناء فيسرفون عن ذى قبل ، لأن الشخص الذى فى نفوسهم ، والعصا التى فى يده لينة لا تترك أثراً فى الضمير .

وينشأ بعد ذلك جيل ثم أجيال . . ويختفى رويداً رويداً ذلك الشخص من الضمير . ويندفع الناس بلا حاجز ، ويسرفون بلا حدود .

تلك قصة الخمر على مدار الأجيال . .

جيل متيقظ فى أول الأمر ، عيونه على الجريمة .

ثم أفراد يتسللون خفية من وراء الستار . . .

فإذا ظلوا فى استتارهم ، لا يتبجحون بالإثم ولا يسمح لهم المجتمع بذلك ، فثم أمل بقاء المجتمع ـ فى عمومه ـ نظيفاً من الجريمة فترة طويلة من الزمان . أما إذا أمنوا زجر المجتمع ، فخرجوا من خفيتهم ، وقعدوا على قارعة الطريق ، فهنا ينشأ أول جيل منحرف . وهو انحراف بسيط فى أول الأمر لا ينذر بالخطر ولا يبدو فيه النكير . ولكن الانحراف البسيط يمتد ، كما يمتد ذراعا الزاوية من نقطة الصفر ـ نقطة الابتداء ـ حتى تنفرج الشقة ويبعد الذراعان . .

والهاوية المحتومة فى نهاية الطريق !

* * *

وهى قصة كل جريمة من جرائم الأخلاق . .

قصة الكذب والخداع والنفاق والغش والتدليس .

قصة الغيبة والنميمة ونهش الأعراض وكشف العورات .

قصة الرشوة والظلم والفساد .

قصة القعود عن نصرة الحق والجهاد فى سبيله .

قصة الترف والسرف والفجور والمجون .

وهى على الأخص قصة « التقاليد فيما يختص بالرجل والمرأة والاختلاط والجريمة . . .

يبدأ المجتمع « نظيفاً » متحفظاً لا يسمح بالاختلاط ولا يتهاون فى الجريمة .

ولا نقصد « بالنظافة » أنه مجتمع من الملائكة الأطهار قد خلا من الجريمة . فهذا شىء لم يحدث فى التاريخ !

ولكننا نقصدها بمثل المعنى الذى يستخدم فى الشئون الصحية . فحين تقول الهيئات الطبية إن المدينة « نظيفة » تقصد أنها نظيفة من الأوبئة الخطرة ، ولا تقصد أنها خالية من حالات فردية من هذه الأمراض .

فى هذا المجتمع النظيف توجد حالات فردية غير نظيفة . ولكنها قليلة ومستترة وعدواها محدودة . وذلك نتيجة الحرص الدائم الذى يبذله المجتمع فى عملية التنظيف .

ولكنه فى وقت من الأوقات يتراخى . . .

عندئذ يأخذ الوباء فى الانتشار التدريجى البطىء .

وفى حالة الأوبئة الجسمية ينتشر المرض بسرعة وبطريقة ملموسة مميتة .

ومن هنا يهب الناس للوقاية والكفاح فى أسرع وقت ويتساندون ويتكاتفون لوقف الوباء .

ولكن الأوبئة النفسية ذات طبيعة أخرى .

فالنفس بطبيعتها استجابة من الجسم . والمناعة النفسية اللاشعورية ـ حين توجد ـ تستطيع أن تقاوم المرض أو على الأقل تخفف حدته القاتلة مدى أجيال .

ولذلك فالفساد الخلقى بطىء المفعول جداً . وقد تمر أجيال كاملة على مجتمع منحل الأخلاق قبل أن ينهار . بل إن الانحلال قد يستشرى فى جيل من الأجيال الأخيرة إلى حد يحييك فيه البحث عن جماعة واحدة فاضلة . ومع ذلك فقد لا تقع الكارثة فى هذا الجيل بالذات . ومن ثم يغرى الناس بالظن أن كل النذر خرافة ، وأنهم مستمتعون بكل ما يشتهون ، ثم ناجون مما كانوا يحذرون !

ولكن سنة الله فى النهاية تتحقق ! لم تتخلف مرة واحدة فى التاريخ !

لم يحدث أن استمتع الناس بشهواتهم الزائدة إلى غير حد ، ثم استمروا إلى الأبد أقوياء متماسكين قادرين على الحياة !

وهذه صفحة التاريخ مفتوحة لمن يريد .

صفحة اليونان القديمة وروما القديمة وفارس القديمة ، والعالم الإسلامى حين غرق فى الشهوات ، ثم صفحة الغرب فى جاهليته المعاصرة .

تبدأ الجريمة بسيطة خفيفة لطيفة . .

اختلاط برىء تحت إشراف الآباء أو غيرهم من المشرفين . .

ونزهات لطيفة أو نواد ظريفة ، ولا بأس فيها من إتاحة شىء من الخلوة « البريئة » بين شاب وفتاة .

وما الذى يمكن أن يحدث فى خلوة كهذه برئية وعين الرقيب على بعد خطوات . . أو حجرات ؟!

ابتسامة من هنا وكلمة إعجاب من هناك ؟

وضمة خاطفة فى غفلة من الرقيب ؟ وقبلة طائرة تطفئ الغلة أو تشعل اللهيب ؟

« يا سيدى » !

ثم يحدث ما يحدث فى الخمر . .

الإدمان . .

الكأس الأولى تصبح بعد حين تافهة ضئيلة المفعول . لابد من كأس ثانية .

والقبلة الأولى تغرى دائماً بالمزيد ، لا يمكن أن تتوقف ، ليس ذلك من طبائع الأشياء

ولكن الجيل الأول مع ذلك لا يسرف فى الجريمة ، ولا يصل إلى الإدمان المجنون .

هنالك الشخص الواقف فى داخل النفس بالمرصاد ، ومعه العصا ينذر ويحذر ويهدد بعظائم الأمور . وهنالك التقاليد التى تربط المجتمع ولا يسهل الخروج عليها دفعة واحدة . ومن ثم لا تحدث الجريمة كاملة فى أول جيل ، وإنما « يتبحبح » الناس قليلاً ويفكون القيود .

ويمضى المجتمع فى طريقه منتشياً لا يحس بالخطر، ولا خطر ـ حتى الآن ـ هناك .

ويظن المجتمع ـ نظرياً ـ أنه قادر على ذلك إلى غير نهاية . قادر على أن

يفك القيود ومع ذلك لا يقع فى الجريمة أو لا يصل إلى الإسراف المعيب .

وهو مخلص فى عقيدته تلك الضالة لأنه يقيس على نفسه ويغفل حقيقة الأمور .

يغفل الضوابط الخفية التى أنشأها فى أعماق نفسه الجيل السابق المتحفظ . والتى لن يخلفها هو للجيل المقبل لأنه غير مؤمن بها ، يظنها تشدداً بلا ضرورة ولا لزوم !

ينسى الرجل أنه قد رأى أمه متحفظة لا تختلط بالرجال ، ورآها مكتسية لا يتعرى من جسمها شىء ، ومن ثم تقاومه هذه الصورة على غير وعى منه وهو يدعو فتاة غريبة إلى الاختلاط به ، ويدعوها إلى تعرية نفسها أو جسدها ليستمتع به .

نعم تقاومه حتى وهو مندفع الشهوة ، فلا يسرف ، ولا يتبجح بالإثم .

والفتاة التى رأت أمها متحشمة وزرعت فى نفسها النفور من العرى - النفسى والجسدى - تتحفظ كذلك - بوعى منها وبغير وعى - حتى وهى تهم بالانزلاق ، فلا تسرف ولا تتبجح بالإثم .

ثم يتراجع هذا الجيل . .

ويجىء جيل جديد تربية الأم التى ذاقت فى شبابها « متعة » التحلل البسيط من القيود ، والأب كذلك .

الأم والأب اللذان ذاقا شيئاً من المتعة ولم يسقطا السقوط الكامل - والأم خاصة - لن ينظرا إلى التقاليد « المتزمتة » بعين الاحترام .

علام التشدد ؟ ألم ينفلتا هما من هذا التشدد ولم يحدث شيء ؟ «فليتبحبح» الأولاد « قليلاً » ولا ضير !

ومن ثم ينشأ الجيل الجديد وقد ضعف الشخص الواقف فى داخل النفس بالمرصاد ، ولانت العصا فلم تعد تترك أثراً فى الضمير ، وتفككت التقاليد فلم تعد تمنع المحظور .

ويتراجع هذا الجيل . .

ويأتى جيل يرى أمة قد تعرت ، من شيء من الثياب وشيء مماثل من الفضيلة (والجسم والنفس صنوان فى هذه الأمور !)

الولد الذى يرى أمه عارية لا تثور فى نفسه نخوة الرجولة والحرص على الأعراض ، فقد زالت فى نفسه حرمة الجسد ، وصار نهباً يباح للعيون ، وبعد ذلك لما هو أكثر من العيون .

والبنت التى ترى أمها عارية لا تؤمن بالقيد .

ويلتقى هؤلاء الأولاد والبنات ، يلتقون على شهوة الجسد الفائرة ، ويلتقون بلا ضابط ولا حدود ، وتتم الدورة المحتومة ، والهاوية فى آخر الطريق .

* * *

والبشرية ـ حين تترك وشأنها ـ قليلاً ما تتذكر ، وقليلاً ما تتدبر عبرة التاريخ !

كل جيل يدفعه الغرور من ناحية ، والنشوة الفائرة من ناحية أخرى ، فيظن أن تجربته جديدة لم تمر على أحد من قبل ، وأنه ليس مقيداً بسنة التاريخ .

ما أسهل ما يقول لنفسه : إن الأمة الفلانية قد انهارت لكذا ، أو الشخص الفلانى قد تحطم لكيت . أما أنا فلن أقع فى غلطته ولن يحدث لى ما حدث هناك . لن يفلت منى الزمام . لن أدع شيئاً يغلبنى . سأصحو قبل أن أبلغ الهاوية . أنا شيء آخر غير الناس من قبل .

ويجيء « العلم » فى القرن العشرين فينفخ فى الناس نفخة كاذبة . يخيّل لهم أنهم خلق غير ما مر من الأجيال فى التاريخ كله . خلق لاتنطبق عليه سنة ولا يخضع لسابقة . إنه عصر الذرة وعصر الصاروخ . عصر يكتب تاريخه بنفسه ، ينشئه على مزاجه ، يخلق جديداً كل يوم ؛ يفتح آفاقاً لم تتفتح من قبل ؛ «يقهر » الطبيعة ويسخرها بعد أن كانت هى التى تقهره وتسيره مرغماً فى طريق لم يختره لنفسه ولا يد له فى تكييفه !

كذلك ينفخ « العلم » فى نفوس الناس . أو ينفخ فيهم شيطان الغرور :

« ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ؟ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً . أفلم تكونوا تعقلون »[1].

ولقد أضل الشيطان هذا الجيل من البشرية كما لم يضل أحداً من البشر ، لأنه أعرض بجانبه ونأى عن الله . وقال « إنما أوتيته على علم » ! « ثم إذا خولناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم ! بل هى فتنة . ولكن أكثرهم لايعلمون »[2].

وهذا الجيل من البشرية يخيل له أنه ناج من سنة الله التى خلت من قبل . وناج من حتمية النتائج حين توجد الأسباب . وناج من الهاوية التى تفغر فاه فى نهاية الطريق !

هذا وهو يرى بعينيه أن العالم كله مهدد بالدمار والخراب الرهيب !

أى غفلة تصيب الناس حين ينأون عن طريق الله وحين يغ[illegible] ويستكبرون؟!

---

(١) سورة يس [٦٠ ـ ٦٢] .　　(٢) سورة الزمر [٤٩] .

« . . قال : إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ! ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين[1] » .

* * *

نعم . حين تترك البشرية وشأنها فقليلاً ما تتذكر ، وقليلاً ما تتدبر عبرة التاريخ .

إنهم لا يرون ـ ولا يريدون أن يصدقوا ـ أن هذا الطوفان الهائل من الفساد قد بدأ من نقطة الصفر ! من النقطة التى ينفرج فيها ذراعا الزاوية ، فرجة بسيطة للغاية فى مبدإ الأمر ، ثم تتسع الشقة كلما مضى الزمن وتتابعت الأجيال .

لا يرون ـ ولا يريدون أن يصدقوا ـ أن الكأس الأولى تتبعها الثانية . والقبلة الأولى تفتح الطريق للجريمة .

لا يرون ـ ولا يريدون أن يصدقوا ـ أن البشرية لم تقف يوماً عند القليل الذى لا يضر ، ما دامت تبيحه على أنه أمر واقع ، وأنه لا يضر ! وإنما تجاوزته حتماً إلى الكثير الذى يغرق كالطوفان .

لا يرون ـ ولا يريدون أن يصدقوا ـ أن المجتمع ـ وهو النهر الذى يشرب منه الجميع ـ لا يمكن أن يظل بمنأى عن التلوث بينما الأقذار تلقى على الدوام فيه ، ولا يمكن أن يظل الشاربون على سلامتهم وهم يشربون الأقذار .

ولكن الإسلام يصدق هذا لأنه يراه .

الإسلام كلمة الله فى الأرض . والله هو الذى خلق الخلق وهو أدرى بما فطرهم عليه :

---

(١) سورة الزمر [٤٩ ـ ٥١] .

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ »[1] .

وقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على هذا الأمر ، لأنه يرى ـ بالعين البصيرة النافذة ـ تسلسل البشرية وتعاقب الأجيال وتماثل النتيجة عند تماثل الأسباب .

يرى الزاوية التى تبدأ من نقطة الصفر . ثم تبعد الشقة بين ذراعيها بُعْدَ ما بين الأبيض والأسود ، والحلال والحرام .

يرى الكأس الأولى تتبعها الثانية ، والقبلة الأولى تؤدى إلى الجريمة . ومن ثم يقف فى يقظة دائمة لكل كأس عابرة وكل قبلة حرام . ولا يقبل فى ذلك حجج المستهترين كلهم وما يتمسحون به من التعللات .

لا يقبل قول الذى يقول : اسمح لى بهذه واطمئن أننى لن أسرف فيها ، ولن أتجاوزها إلى جديد !

لا يقبله لأنه ليس له رصيد من الواقع ، وكله أوهام !

وقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو الذى يشرح بأعماله وأقواله الصورة المفصلة للإسلام ، ويجلوها فى عالم الواقع . . كان الرسول على ذكر دائم وبصيرة كاملة بهذا التسلسل الذى يربط أجيال البشرية ، والوحدة التى تشملها أفراداً وجماعات ، وأجيالاً إثر أجيال .

كان على بصيرة من انتقال العدوى من شخص إلى شخص ومن جيل إلى جيل . بل بانتقال العدوى فى النفس الواحدة من فكرة إلى فكرة ومن شعور إلى شعور !

وكان دائم التنبيه لهذا الأمر :

« الحلال بيّن ، والحرام بيّن . وبينهما أمور متشابهات ، فمن اتقى الشبهات

---

(١) سورة الملك [١٤] .

فقد استبرأ لدينه ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه ! »[1].

« إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أن كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض »[2].

من أجل ذلك قال : ما أسكر كثيره فقليله حرام .

وأخذ عنه المسلمون هذه القاعدة التشريعية الشاملة فقال فقهاؤهم إن وسيلة المحرم محرمة لأنها تؤدى إليه . فالفاحشة حرام ، والنظرة إلى الأجنبية حرام لأنها تؤدى إلى الفاحشة .

وسرت هذه القاعدة فى كل التشريع . . وسرت كذلك إلى صميم المجتمع . فكان كل فرد دائم اليقظة إلى الناس يحذر أن توجد الكأس الأولى التى تؤدى إلى الطوفان . « أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك » !

* * *

والإسلام يعلم أنه مهما صنع فلن يبطل الجريمة ولن يلغى الفاحشة من البشرية !

نعم . يعلم ذلك على اليقين . ولا يدفن رأسه كالنعامة فى الرمل ويقول : ما دمت لا أراه فهو غير موجود !

ولكنه ـ مع ذلك ـ لا يعترف بالجريمة كأمر واقع ، ولا يقبلها على هذا الوضع !

موقفه بالضبط كموقف الطبيب المشرف على وقاية الناس من الأمراض .

---

(١) رواه البخارى .　　(٢) رواه أبو داود .

إنه يعلم أنه مهما صنع فلن يمنع المرض من الوجود ، ولن يصبح الناس كلهم محصنين !

ومع ذلك فلا ينهزم أمام المرض ولا يتركه يتفشى فيتحول إلى وباء .

مهمته الدائمة هي العراك مع الأمراض .

ويعلم علم اليقين أنه ستظل هناك حالات فردية لا تنفع فيها الوقاية ، وقد لا ينفع كذلك العلاج .

ولكنه يصر على المقاومة ، ولا يلجأ إلى الهزيمة ، ويقول ـ وهو صادق ـ إن المدينة « نظيفة » ما دامت خالية من الوباء .

وكذلك يصنع الإسلام في وقاية البشرية .

يقف لكل جريمة مفردة ليحاول منعها من الانتشار ، ولا يستهين بها مهما تكن من الضآلة في مبدإ الأمر. فجرثومة الكوليرا الواحدة المفردة تقتل في النهاية مئات الألوف ومئات الملايين . وجرثومة الفساد الواحدة المفردة تقتل شعباً بأكمله .

وهو يقف للجريمة بكل وسائل الوقوف .

يقف لها داخل الضمير . فالمناعة تنبت من داخل النفس .

ينظف هذا الضمير ويهذبه ويربطه بالله : « تعبد الله كأنك تراه » .

ويقف لها في المجتمع بإقامة التقاليد التي تجعل الفضيلة عادة و[illegible] الجريمة منكرة مرهوبة .

ثم يقف لها بالتشريع الذي يعاقب على الجريمة .

وحين تقع الجريمة في هذا الجو ، فهي كحالة المرض المفردة التي قد لا [illegible] فيها الوقاية ولا ينفع فيها العلاج . ولكن الوقاية والعلاج يفلحان في من[illegible]

انتشارها وتحولها فى النهاية إلى وباء .

وقد أمر الله بمنع الفاحشة ووضع لذلك الحدود .

ثم جاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضع ـ الشرح المفصل للحدود حين قال : «ما أسكر كثيره فقليله حرام» .

ولم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ متشدداً ، متزمتاً بلا ضرورة .

إنما كانت الحكمة الخالصة التى فتح لها قلبه اللطيف الخبير .

إدرءُوا الحُدُود بالشّبهَات

« ادرءوا الحدود بالشبهات » [1] .

« ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فمن كان له ملجأ فخلوا سبيله ، فإن الإمام إن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة » [2] .

* * *

« الشك يفسر فى صالح المتهم » .

تلك هى القمة الإنسانية التى بلغتها أوربا بعد الإسلام بأكثر من ألف عام!

ومع ذلك فهى لم تصل إليها فى سهولة ويسر ، ولم تصدر فيها عن مشاعر إنسانية خالصة ، تحس بقيمة « الإنسان » فى ذاته ، وتقدر حرمته وكرامته وحقوقه ، وتعطف عليه حتى وهو يخطئ فى حق الجماعة ، ويهبط عن المستوى اللائق بالإنسان . . وإنما جاء ذلك بعد صراع مستمر عنيف ، جرت فيه أنهار من الدماء وطاحت فيه كثير من الرءوس !

كان الوضع الذى استقر فى أوربا فترة طويلة من الزمان ، يقسم الناس إلى

---

(١) رواه عبد الله بن عباس (ورد فى كتاب الكامل لابن عدى وفى مسند أبى حنيفة للحارثى)

(٢) ذكره صاحب مصابيح السنة فى الصحاح .

سادة فى جانب وعبيد فى جانب . سادة من « الأشراف » يجرى فى عروقهم دم مقدس ! من لون غير دماء البشر العاديين ! سادة هم الذين يملكون ويحكمون ويشرعون . وعبيد لا يملكون شيئاً ، ولا يشرعون شيئاً ، وكل مالهم هو الذل والهوان المقيم .

وحتى القانون الرومانى المشهور بعدالته « المثالية ! » والذى يعتبر الأصل الذى تستمد منه القوانين الأوربية الحديثة فى كثير من المسائل ، حتى هذا كان قانوناً « للرومان فقط » ! الذين يملكون حقوق المواطن الرومانى . وقليل ما هم ! أما بقية الشعب فى إيطاليا نفسها ، ودع عنك المستعمرات والملحقات والبلاد المغلوبة ، فلم تكن تستمتع بهذا العدل الرومانى ، ولم تكن لها حصانة من العسف والاضطهاد . والفرق الهائل بين عدد الأحرار وعدد العبيد يرينا إلى أى حد كانت القلة القليلة تستمتع على حساب الكثرة المغلوبة . فقد كان الأحرار فى روما سنة ٢٠٤ ق . م . ٢١٤ ألفاً ، وكان العبيد ٢٠ مليوناً من البشر فى إيطاليا ، غير بقية المستعمرات !

ووجدت فى بقاع الأرض ـ فى أوربا وفارس والهند وسواها ـ قوانين صريحة تفرق بين الشريف والعبد فى طريقة المعاملة أمام القضاء . وتنص على اختلاف العقوبة على العمل الواحد . فالعبد السارق يقتل ، والشريف السارق يكتفى برد ماالديه ! والمعتدى على الشريف ـ إن كان شريفاً مثله ـ فالعين بالعين والسن بالسن . أما المعتدى على العبد فجزاؤه الغرامة ! والغرامة لا تؤدى إليه إنما تؤدى للسيد الذى يملك العبد ، تعويضاً له عن « إتلاف » بعض ممتلكاته! أما السيد ذاته فله على عبده حق القتل والإبادة والتعذيب ! وحتى حين كانت القوانين تخجل من هذه الصراحة فالتطبيق كان يأخذ نفس الروح : فالشريف لا يؤخذ بالظنة ، ولا يحاكم إلا حين تثبت عليه التهمة ، ويحكم عليه بأخف العقاب . والعبد ـ أى الشعب . . يسام التنكيل لأقل

شبهة ، ويعذب بوحشية ليعترف ، ثم يوقع عليه العقاب البشع الذى لا يتناسب مع الجرم ولا يتناسب مع « الإنسانية » !

ولكن استمرار الحال على هذه الصورة البشعة لم يكن من المستطاع ، فلا بد أن يثور العبيد لكرامتهم مهما طال عليهم الأمد وطال منهم السكوت . .

وقامت الثورات بالفعل مزلزلة مدمرة وأطاحت بالرءوس . . رءوس الملوك والملكات والأشراف والنبلاء . . وتقررت ـ نظريا على الأقل ـ بعض حقوق الإنسان . تقررت له حرماته وحقوقه وضماناته . وكان من هذه الضمانات : ضمانة الحياة فلا يموت جوعاً . وضمانة الحياة فلا يعتدى عليه بغير الحق . وضمانة العيش فلا يموت جوعاً . وضمانة الحريات : حرية القول والاجتماع والسفر واختيار العمل . وضمانة العدالة فى القضاء فلا يؤخذ المتهم بالشبهة ، ولا يؤثر عليه فى التحقيق بالوعيد ولا بالوعد . . ويفسر الشك فى صالح المتهم، فلا يحكم عليه بالعقوبة الكاملة إلا حين تثبت التهمة بالدليل القاطع الذى لا شبهة فيه .

ثم كانت الثورة الصناعية فى انجلترا ، وتلتها الحركة الرأسمالية فى بلاد أوربا . .

وللشيوعية رأى فى الرأسمالية : أنها استعباد من رءوس الأموال للكادحين ، وامتصاص لجهدهم الذى يبذلون فيه العرق والدماء والدموع ليتحول إلى ثراء فاجر فى يد الرأسماليين العتاة . .

وإنها لكذلك . .

ولكن التاريخ قد وعى ـ رغم ذلك ـ حركة هائلة من التحرر فى فترة الرأسمالية، نقلت الشعب من مقام العبودية المطلقة والهوان الكامل ، إلى وضع أقل ما يقال عنه إنه يحمل من الضمانات السياسية والاجتماعية والقانونية ما يعترف بكرامة الفرد ويرد اعتباره إليه . .

ولم يكن ذلك تفضلاً من « السادة » الحكام والملاك والمشرعين . ولا كان إحساساً منهم بالخير الفياض فى نفوسهم ، والتقدير « الحر » لكرامة الإنسان كان صراعاً طويلاً عنيفاً اصطدمت فيه القوى من الجانبين كما حدث من قبل فى صراع العبيد ضد الإقطاع . . وإن كانت لم تصحبه الثورات الدموية من الشعوب ضد الحكام ، لأن الثورة الفرنسية كانت قد قررت لهم المبادئ ولم يبق سوى التنفيذ ، ولأن العمال كانوا يملكون السلاح الذى يواجهون به الرأسمالية وهو سلاح الإضراب !

* * *

كلا ! لم تصل أوربا إلى العدالة عن تقدير صادق للكرامة الإنسانية ، وشعور صادق بقيمة الإنسان ! وإنما كانت خطوة خطوة يتراجعها السادة الحاكمون ليكسبها الشعب الحاقد الغضبان !

وحتى فى العصر الحديث حين استقرت الأمور ـ بعض الشىء ـ وزال عنها شىء من شعور الحقد ، وأصبحت العدالة من أمور الحياة العادية البديهية المقررة . . وصار القبض على شخص واحد فى انجلترا مثلاً بدون تهمة ، أو اعتقاله يوماً بدون تحقيق ، يثير البلاد كلها ، ويقيمها ويقعدها ، وتستجوب عنه الحكومة أمام الشعب . . حتى عندئذ لم يصطبغ القانون الأوربى أو الغربى عامة بالصبغة « الإنسانية » . فما تزال فيه السمة الرومانية البغيضة التى كانت تقصر العدالة من قبل على المواطن الرومانى ، وهى اليوم تقصرها على الرجل الأبيض ، الذى يستمتع وحده بالحقوق الإنسانية ويحرم منها بقية بنى الإنسان . والشواهد البشعة على ذلك فى كل مكان على ظهر الأرض وطئه الرجل الأبيض وما زال مسيطراً عليه ، فى أفريقيا وآسيا وأمريكا . . وبين البيض والملونين فى كل مكان !

أما الإسلام فلم يكن فى حاجة إلى الثورة المزلزلة التى تهرق الدماء وتقطع الرءوس !

بل لم يكن فى حاجة إلى مجرد المطالبة بالحقوق !

بل لقد كان هو الذى يمنح الناس الكرامة الإنسانية ، ويحرضهم على التشبث بها ، والمحافظة عليها ، والكفاح من أجلها فى وجوه الطغاة والظالمين !

يمنحها متفضلاً . . ككل حق منحه للناس قبل أن يطلبوه ، ورباهم على اعتناقه فى ظل العقيدة ، كجزء من العقيدة ، وطالبهم بإقامته ـ فى ظل العقيدة ـ كفرض من الفروض !

ولا عجب فى ذلك . فالإسلام كلمة الله . والله هو المانح ، والمتفضل على البشر بكل نعمة من نعم الحياة !

وقد قضى الله أن يكون الحق والعدل قوام الحياة . . .

الحق الذى هو صنعة الله . والذى خلق الله به السماوات والأرض : «خلق السماوات والأرض بالحق »[1] « ربنا ما خلقت هذا باطلاً : سبحانك ! »[2] «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لاإله إلا هو رب العرش الكريم »[3] . الحق الذى هو صفة كل شىء صدر عن إرادة الله ، والذى ينبغى للبشر خلفائه فى الأرض ـ أن يحكموا به كذلك : « إن الله يأمر بالعدل »[4] « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[5] .

---

(١) سورة الزمر [٥] .

(٢) سورة آل عمران [١٩١] .

(٣) سورة المؤمنون [١١٥ ـ ١١٦] .

(٤) سورة النحل [٩٠] .

(٥) سورة النساء [٥٨] .

«ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى . » [1]
«فاعدلوا ولو كان ذا قربى » [2]

وقد اقتضى الحق والعدل أن يتساوى الناس كلهم أمام القانون ، لأن الناس كلهم متساوون فى صدورهم عن إرادة الله ، وصدورهم عن نفس واحدة خلقها الله ، ومتساوون أخيراً فى مصيرهم إلى الله : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » [3]، « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [4] « وإن كل لما جميع لدينا محضرون » [5] « أنتم بنو آدم . وآدم من تراب » [6] .

من هذه المساواة المطلقة فى المنشإ والمصير قامت المساواة الكاملة فى الإسلام أمام الشريعة . لا فرق بين سيد وعبد ، ولا بين شريف وحقير .

يقول الرسول الكريم : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . [7] فيضع بذلك حداً للمظالم التى كانت قائمة فى الأرض ـ والتى ظلت قائمة فى غير الإسلام ـ بعد ذلك بألف عام ! ويضع حداً للخرافة البغيضة التى تفرق بين الناس فى الخلقة ، وتفرق بينهم بعد ذلك فى الحقوق . ولم يكن ذلك القول خطبة حماسية جميلة لاسترضاء الشعوب ، ولا مبدأ مثالياً جميلاً معلقاً فى الفضاء . وإنما كان حقيقة واقعة

---

(١) سورة المائدة [٨] .
(٢) سورة الأنعام [١٥٢] .
(٣) سورة النساء [١] .
(٤) سورة الحجرات [١٣] .
(٥) سورة يس [٣٢] .
(٦) مسلم وأبو داود
(٧) رواه الستة .

شهدها التطبيق العملى فى حياة المسلمين . فقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقيد من نفسه ، أى يدعو الناس للقصاص منه إذا كان أحدهم يظن أنه قد ظلمه أو اعتدى عليه !! وكان عمر يجلد ابن عمر لأنه شرب الخمر ، وهو ابنه وهو شريف من قريش !

أما العبيد الأرقاء بالفعل ، فقد عمل الإسلام على تحريرهم ، وسلك إلى ذلك مسالك شتى . وإن كانت قد بقيت منه بقية فى نطاق ضيق فذلك لأن الأمر كان يرتبط ارتباطاً أساسياً بأسرى الحرب ، والمعاملة فيهم بالمثل ، وكان الرق هو مصير أسرى الحرب فى معظم الأحوال [1] .

ولكن المهم ـ ونحن بصدد التطبيق القانونى ـ أن الإسلام ـ وهو يعترف بالرق كضرورة مؤقتة يعمل دائماً على الخلاص منها ـ لم يبح « للسادة » أن يميزوا أنفسهم على عبيدهم ، ولم يبح لهم التصرف « الحر » فى هؤلاء العبيد :

« من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه » [2]

ولم يكن ذلك أيضاً كلمة تقال فى الهواء ، ولا مبدأ مثالياً معلقاً فى الفضاء . وإنما كان حقيقة واقعة شهدها التطبيق العملى فى حياة المسلمين . فقد أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقصاص من رجل جبّ عبده . وقصة عمر مع الشريف الذى لطم عبداً لأنه داس عفواً على ذيله أثناء الطواف فى الحج معروفة ، فقد أصر عمر على القصاص . . على أن يلطم العبد ذلك الشريف . . وظل الشريف يرجو ويشفع وعمر يصر . . حتى فر الرجل أخيراً وارتد عن الإسلام !

---

(١) انظر بالتفصيل فصل « الإسلام والرق » فى كتاب « شبهات حول الإسلام »

(٢) الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى .

أما البلاد المفتوحة ، فقصة القبطى الذى جاء يشكو ابن عمرو بن العاص لأنه ضرب ابنه بغير حق ، فأمر عمر بأن يضرب القبطى ابنَ عمرو ويقتص منه . . هذه القصة وحدها تحمل الدليل !

* * *

تلك أولى مراحل العدالة فى الإسلام ! المساواة بين الناس كلهم أمام الشريعة . .

ولكنها درجة واحدة وبعدها درجات . .

فالإسلام لا يكتفى بأن تكون المعاملة للجميع واحدة . . ولكنه يعطى إلى جانب ذلك شريعة هى فى ذاتها عادلة فلا يظلم ولا يحيف . فالشرع لا يعرف قول القائلين : المساواة فى الظلم عدل ! وإنما هو العدل ، والمساواة فى العدل !

وليس هنا مجال التفصيل فى عدالة الشرع الإسلامى . . فقد عرضنا ذلك التفصيل فى فصل « الجريمة والعقاب » فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » ولكنا نقول هنا ـ بغاية ما نستطيع من إيجاز ـ إن الشرع الإسلامى يبلغ قمة العدالة حين ينظر إلى الفرد والمجتمع فى آن واحد ، ليتأكد من أن كلاً منهما يأخذ حظه من الحقوق ، ويؤدى نصيبه من الواجبات . وأن أيا منهما لايظلم لحساب الآخر ، أو يفتات على أخيه .

فبينما كانت القوانين فى الدول القديمة ـ وما زالت فى الدول الجماعية فى الوقت الحاضر ـ تشتط فى عقاب المجرم ، لأنه وهو فرد ضائع لا كيان له ، يعتدى على الكيان المقدس ، كيان الجماعة ؛ ويُتخذ ذلك ستاراً للتنكيل بكل فرد تحدثه نفسه بالخروج على السادة ذوى القداسة والسلطان . .

وبينما تبالغ الدول الغربية الرأسمالية فى إباحة الحرية للفرد ، على أساس أنه

هو الكائن المقدس ولا قداسة للجماعة ولا كيان ، وينشأ من ذلك تخفيف العقوبة على المجرم وتلمس الأعذار له . . نجد الإسلام يمسك الميزان من منتصفه ، فلا يميل فى جانب الفرد ولا جانب الجماعة ، لأنه لا يراهما فرداً وجماعة منفصلين ، ولا يعتبرهما معسكرين متقابلين تقوم بينهما العداوة والبغضاء ، ويرغب كل منهما فى تحطيم الآخر والقضاء عليه . . بل ينظر إلى الفرد والجماعة على أنهما كلٌّ متجاوب موحد الغاية متعاون فى الأداء . . فإذا شذ فإنه يُقوَّمُ لكى يرد إلى السبيل ؛ وسواء جاء الشذوذ من الفرد بمفرده أو جاء من الجماعة . . فكلاهما مخطئ وكلاهما ينبغى أن يرد إلى الصواب !

وهو إذ ينظر مرة بعين الجماعة ، فيرى حقها فى الطمأنينة على نفسها ، والمحافظة على حقوقها ، فيمنع العدوان عليها ، ويعاقب المعتدين . . فإنه ينظر فى ذات الوقت إلى الفرد ، فيرى دوافعه إلى الجريمة ، سواء كانت منبعثة من داخل النفس ، من نزوة الغريزة ، ودفعة الشهوات ، أو من الظروف الخارجية ، الاجتماعية والاقتصادية ، فيقدر هذه الدوافع ، وينظر إليها بعين الاعتبار . . ويعمل على إزالتها بكل طريقة ممكنة قبل أن يوقع العقوبة : بالتشريع الذى يكفل الضرورات مرة ، والتشريع الذى يصون الحرمات مرة ، والتربية التى تهذب النفس وتنظف مساربها ، وتجعل روح الحب والتعاون والتكافل هى الروح السائدة فى الجماعة . . أولاً وأخيراً بالعقيدة التى تربط القلب بالله ، وتوجهه لخشيته والعمل على رضاه . . فإذا عجز ولى الأمر عن إزالة الدوافع لأى سبب من الأسباب ، أو ساورته فى ذلك شبهة ، فعند ذلك يدرأ الحدود بالشبهات !!

أى عدالة يمكن أن تبلغ هذه العدالة ؟!

« روى أن غلماناً لابن حاطب بن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فأتى بهم عمر ، فأقروا ، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم ، فلما ولى رده . ثم قال : أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له ، لقطعت أيديهم . ثم وجه القول لابن حاطب بن أبى بلتعة فقال : وايمن الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك ! ثم قال : يا مزنى ، بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال : بأربعمائة . قال عمر لابن حاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة » !

فهذه حادثة واضحة الدلالة على أن « المجرم » لا يؤخذ بذنبه حتى ينظر الحاكم أولاً فى دوافع الجريمة ، فيزنها بميزان الحق والعدل ، ويبحث عن المسئول الحقيقى فيها ، فيوقع العقوبة عليه . وقد كان المسئول فى هذا الحادث هو « السيد » الذى يمثل الملاك ! بينما أعفى « المجرم » من العقاب ، لأنه اعتبره واقعاً تحت ضغط الضرورة التى تغلب الإنسان على نفسه وتدفعه إلى الانحراف . وهى كذلك تطبيق عملى لحديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ادرءوا الحدود بالشبهات .

وإن الدول « الحرة » التى تعطف اليوم على المجرم ، وتتلمس له المعاذير ، وتخفف عنه العقوبة أو ترفعها عنه ـ بعد أن كانت تشتد عليه وتقسو ـ هذه الدول تصنع ذلك بروح أخرى غير روح الإسلام ! فعلم النفس التحليلى ، وغيره من الدراسات النفسية والاجتماعية ، يبرر الجريمة اليوم على أساس سلبية الإنسان إزاء الدوافع الداخلية أو الخارجية ، وانعدام « الإرادة » التى تقوم عليها « المسئولية » . ولكن الإسلام لا يهبط إلى هذا المستوى فى نظرته إلى الإنسان . إنه لا يلغى كيانه الإيجابى الفاعل المريد . ولا يسقط عنه مسئوليته كإنسان . وإنما هو ـ مع ذلك ـ يعطف عليه فى لحظة الضعف ، ويدرأ عنه

الحدود بالشبهات . . فهو فى الواقع عطف مضاعف ـ بالنسبة للمستوى الرفيع الذى يطالب به الإنسان ـ وهو عطف أكرم ولا شك من ذلك الذى تمارسه الدول « الحرة » على كائن لا إرادة له فى نظرها ولا كيان !

أما الدول الجماعية التى تكفل للناس حاجاتهم ، وتجعل الدولة مسئولة عنها ، وتغنى الناس ـ فيما تقول ـ عن الجريمة ، فإنها تأخذ ثمن ذلك دكتاتورية بشعة ، وتحكماً فى كل صغيرة وكبيرة ، واستعباداً للدولة . بينما كان عمر ـ الذى طبق هذا المبدأ ، مبدأ مسئولية الجماعة ومسئولية الدولة عن حاجة الأفراد [1] ـ هو الذى يقول : « إن أحسنت فأعينونى ، وإن وجدتم فى اعوجاجاً فقومونى » ، فينتدب له رجل من المسلمين يقول : « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف ! » فلا يغضب ، بل يقول فى هدوء وطمأنينة :

« الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقومه بحد سيفه ! » .

* * *

الشريعة عادلة فى ذاتها ، ومطبقة بالمساواة على الجميع .

ولكن هذا وذاك لا يستنفدان كل معانى العدالة فى شريعة الإسلام .

ما زالت هناك « الضمانات » المختلفة للفرد الذى يوجه له الاتهام : ضمانة

---

(١) مبدأ كفالة الدولة للأفراد ومسئوليتها عن جميع أمورهم مبدأ صريح فى الإسلام ، وقد كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول : لو أن بغلة عثرت بصنعاء لكنت مسئولاً عنها لم لم أسوّ لها الطريق ! ويقول ابن حزم فى صراحة إن (الجماعة) مسئولة عن كل فرد فيها ، وإن للإنسان أن يقاتل من فى يده طعامه أو شرابه (إذا منعه عنه) فإن قتل لأهله الدية ، وإن قتل لدفع لا يقام عليه الحد !

الصدق فى الاتهام ذاته . وضمانة حسن التحرى . وضمانة التحقيق وضمانة التنفيذ .

« يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »[1].

فهذه الضمانة الأولى . . لا يؤخذ أحد بالظنة . ولا بد أن يوزن الاتهام ذاته ليرى مبلغه من الصدق ومبلغه من الجد ، فللناس حرماتهم المصونة وكراماتهم التى لا يجوز أن تمس . . إلا بالحق .

« ولا تجسسوا »[2]

فهذه هى الضمانة الثانية . . لا تكون الجاسوسية من وسائل الإثبات !

وقد روى أن عمر مر ببيت رابته منه أصوات . . فتسور الجدار فوجد قوماً يشربون ويغنون فأراد أن يعاقبهم . . فقام له صاحب الدار فقال عمر : وما ذاك ؟ قال : إن الله تعالى يقول : « ولا تجسسوا » وأنت تجسست علينا . ويقول « وأتوا البيوت من أبوابها » وأنت تسورت علينا ! فلم يجد عمر أمامه إلا أن يستتيبه !

ثم ضمانات التحقيق . . وهنا يرتفع الإسلام إلى القمة التى لم تبلغها الإنسانية فى غير الإسلام إلا منذ فترة قريبة ، وبدافع الصراع الدموى الطويل الذى فصلناه من قبل ، لا بدافع الإنسانية الطليقة التى تكرم « الإنسان » حتى فى لحظة الهبوط !

إن المحقق ليست مهمته الإيقاع بالمجرم وتضييق الخناق عليه فى التحقيق !

---

(١) سورة الحجرات [٦] .

(٢) سورة الحجرات [١٢] .

ولا يجوز له أن يستخدم وسيلة من وسائل الإرهاب تنتهى بالاعتراف .

جاء فى سنن أبى داود (ج ٤ ص ١٩١) : « حدثنا عبد الوهاب بن بجدة . . أن قوماً من الكلاعيين سرق لهم متاع . فاتهموا أناساً من الحاكة ، فأتوا النعمان بن بشير صاحب النبى - صلى الله عليه وسلم - فحبسهم أياماً ثم خلى سبيلهم . فأتوا النعمان فقالوا : خليت سبيلهم بغير ضرب ولا امتحان ؟ فقال النعمان : ما شئتم ! إن شئتم أن أضربهم . . فإن خرج متاعكم فذاك ، وإلا أخذت من ظهوركم مثل ما أخذت من ظهورهم ! فقالوا : هذا حكمك ؟ فقال : هذا حكم الله وحكم رسوله - صلى الله عليه وسلم - »[1] .

أما الذى يعترف بنفسه . . فالقمة التى وصل إليها الإسلام بشأنه عجب عاجب فى التاريخ !

« حدثنا موسى بن إسماعيل . . أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أُتِىَ بلص قد اعترف اعترافاً ولم يوجد معه متاع ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما إخالك سرقت ؟! » قال : بلى ! فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً ، ثم أمر فأقيم عليه الحد »[2] .

أما قصة ماعز بن مالك الذى اعترف على نفسه بالزنا فهى قصة مشهورة . فقد ظل يجىء إلى الرسول مرة بعد مرة يعترف لديه والرسول - صلى الله عليه وسلم - يرده ، حتى اعترف أربع مرات ، فعاد الرسول يسأله ويستوضح وينفى له التهمة أو يفتح له طريق الخلاص ! فيقول له : « لعلك قبّلت ، غمزت ، أو نظرت » .

---

(١) رواه أبو داود

(٢) أبو داود .

وماعز يصر ويقول لا ! فقال له : « أزنيت ؟ » قال : نعم ! قال : « فهل تدرى ما الزنا ؟ »[1] . فما أقام عليه الحد حتى اطمأن اطمئناناً كاملاً أنه يصر على الاعتراف ولا يريد أن يدرأ عن نفسه العذاب !

فإذا كان هذا هو جو التحقيق فلا مجال بطبيعة الحال لشيء من الوسائل البشعة التي تتخذ في غير الإسلام .

أما التنفيذ بعد كل هذه الضمانات . . التنفيذ في مجرم ثبتت عليه التهمة من غير إكراه ، ووقعت عليه عقوبة في ذاتها عادلة ، ووقعت لأنه لا شبهة في الجريمة تدفع عنه الحد . . التنفيذ بعد ذلك كله يحمل ضماناته !

حدثنا أبو كامل . . عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه »[2] .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم : « لا تعذبوا بعذاب الله »[3] (أي النار)

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة »[4] .

ولكن هذا ليس كل ما هناك . . .

لقد بلغنا العدالة ولم نبلغ بعد قمة الإسلام !

إن المجرم إذا وقعت عليه العقوبة بعد هذا الاحتياط كله . . المجرم الذي لا شبهة في جريمته . . المجرم الذي لا عذر له في ارتكابها . . وإنما هي نزوة من نزوات النفس الشريرة ، ودفعة من دفعات الهبوط . .

ذلك المجرم لم يخرج بعد من دائرة الإنسانية ، بل لم يخرج من دائرة الجماعة

---

(١) أبو داود من روايات متعددة . (٢) أبو داود .

(٣) أبو داود . (٤) انظر فصل « وليرح ذبيحته » .

الإسلامية ! إنه لا ينبذ ولا يضطهد . . ولا يعيّر بجريمته . . ولا يذكّر بها . . ولا يحول شيء قط بينه وبين أن يعود إلى الجماعة ـ فى لحظته ـ تائباً منيباً إلى الله ، فيقبل فيها وتفتح له القلوب .

« حدثنا قتيبة بن سعيد . . عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى برجل قد شرب ، فقال : « اضربوه » . قال أبو هريرة : فمنا الضارب بيده ، والضارب بنعله ، والضارب بثوبه . فلما انصرف قال بعض القوم : أخزاك الله ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تقولوا هكذا . لا تعينوا عليه الشيطان »[1]

وفى حادث السارق الذى مر ذكره ، والذى أمر الرسول بإقامة الحد عليه ، قال له الرسول : استغفر الله وتب إليه » فقال : استغفر الله وأتوب إليه ، فقال : « اللهم تب عليه اللهم تب عليه » ثلاث مرات[2] .

نعم إن الإسلام لا يحب أن يفقد نفساً واحدة يمكن أن تتوب إلى الله وتهتدى إليه . إنه لا يصر على لحظة الضعف التى تصيب فرداً من البشر ، ولا يُعنِتُه من أجلها . وإنما يفتح له بابه لكى يعود . . يعود إلى الله ويعود إلى الجماعة ، فينطلق فيما هى منطلقة من الخير ، ويأخذ لنفسه من ذلك الخير بنصيب . ولا تقف الجريمة العابرة حاجزاً فى حياته ، ولا تسمم أحاسيسه وأفكاره ، ولا توصد أمامه الأبواب فيصبح مجرماً مصراً على الإجرام بعد أن كان مجرماً بغير قصد . وذلك معنى قول الرسول الكريم : لا تعينوا عليه الشيطان» .

ومع ذلك فإن تكريم الرسول الكريم للبشرية . . « للإنسان » الذى خلقه

---

(١) أبو داود .   (٢) أبو داود .

الله فى أحسن تقويم . . حتى وهو يرتد فى لحظة لأسفل سافلين . . تكريمه له ما دام لا يصر على الإثم ولا يمرد عليه ، لا يقف عند الأحياء الذين يرجوهم للجماعة ، ويستبقيهم لخير يمكن أن يصنعوه فى الأرض ، أو ليتقى شراً يمكن أن يصدر عنهم ـ أى لأهداف « عملية » واقعية ! ـ وإنما يتجاوز ذلك إلى آفاق أخرى ، رفافة شفيفة ، نسيجها الرحمة الخالصة ، والتكريم الخالص . . لوجه الله !

جاء فى قصة ماعز بن مالك : « . . فأمر به فرجم ، فسمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه : انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب . فسكت عنهما ، ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجليه ، فقال : « أين فلان وفلان ؟ » فقالا : نحن ذان يارسول الله . قال : « انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » . فقالا : يا نبى الله ، من يأكل من هذا ؟ قال : « فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشد من أكلٍ منه . والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها» .

يا الله . . ويا نبى الله .

ألا إنها آفاق ما بعدها آفاق . . ألا إنه النور الذى يشع من هذا القلب الكونى الذى يتصل بالله ، ثم يفيض بالرحمة والهدى على عباد الله . .

وذلك كله قبل أن يقول قولته علم الاجتماع وعلم الاقتصاد ، وعلم النفس التحليلى وعلم الجريمة ، قبل أن يتفلسف المتفلسفون فى هذا الميدان بأكثر من ألف عام .

سَفينَة المجتمع

« مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً » . [1]

* * *

صورة عجيبة تلك التى تتمثل فى النفس من قراءة هذا الحديث . . صورة حية شاخصة موحية معبرة .

وإن هناك لجمالاً بديعاً فى هذا التشبيه بالسفينة . فالحياة كلها هذه السفينة الماخرة فى العباب ، لا تكاد تسكن لحظة حتى تضطرب من جديد . ولن يكتب لها السلامة والاستواء فوق الموج المضطرب حتى يكون كل شخص فيها على حذر مما يفعل ، ويقظة لما يريد .

والمجتمع كله هذه السفينة . . يركب على ظهرها البر والفاجر ، والمتيقظ والغفلان ، وهى تحملهم جميعاً لوجهتهم . . ولكنها ـ وهى محكومة بالموج المضطرب والرياح من جانب ، وما يريده لها الربان من جانب ـ لتتأثر بكل

---

(١) رواه البخارى والترمذى .

حركة تقع فيها ، فتهتز مرة ذات اليمين وتهتز مرة ذات الشمال ، وقد تستقيم على الأفق أحياناً أو ترسب أحياناً إلى الأعماق . . !

وإن كثيراً من الناس لينسى ـ فى غمرته ـ هذه الحقيقة . ينسى سفينة المجتمع أو سفينة الحياة .

ينسى . فيخيل إليه أنه ثابت على البر ، راكز راسخ لا يضطرب ولا يزول .

ومن أجل ذلك يفجر أو يطغى . .

ولو تذكر من استكبر وطغى أنه ليس راكزاً على البر ؛ ليس دائماً فى مكانه ، ولا خالداً فى سطوته ، وإنما هى رحلة قصيرة على سفينة الحياة . . لو تذكر ذلك ما استكبر ولا طغى ، ولا اغتر بقوته الزائلة عن الحقيقة الخالدة ، ولعاد لمصدر القوة الحقيقية فى هذا الكون ، يستلهم منه الهدى ، ويطلب منه الرشاد ، ويسير على النهج الذى أمر به وارتضاه للناس .

ولو تذكر من يفجر وينحرف أنه ليس راكزاً على البر ، وإنما هو منطلق على العباب . . وأن كل حركة يأتيها تتأثر بها السفينة فتهتز . . لو تذكر ذلك لما ترك نفسه لشهواته ولانحرافاته ، ولعمل حساباً لكل خطوة يخطوها وكل حركة يحركها حرصاً على نجاته هو ونجاة الآخرين . .

ولكنها الغفلة السادرة التى تخيم على البشرية . . إلا من آمن واتقى وعرف ربه واهتدى إليه

والرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدرك هذه الغفلة التى ترين على قلوب الناس ، فيحذرهم منها ، ويصورها لهم فى صور شتى ، من أعجبها وأبلغها هذه الصورة التى يرسمها هذا الحديث ، صورة السفينة الماخرة فى العباب . .

* * *

حين قال الإقطاعيون لأنفسهم : نملك الأرض وكل من عليها عبيد . .

وحين قال الرأسماليون لأنفسهم : نملك المصانع والعمال فيها عبيد . .

وحين قال الأباطرة المقدسون : نملك الملك والرعايا عبيد . .

وحين قال غيرهم وغيرهم من الظالمين مثل قولتهم ، لم تكن غير نتيجة واحدة في كل مرة ، غرقت السفينة المخروقة ، وغرق من عليها من سادة ومن عبيد !

وانظر في ثورات الأرض المزلزلة التي أطارت الرءوس وأجرت الدماء ، وانظر إلى الحروب المدمرة التي تأكل الأخضر واليابس وتسمم الحياة ، لم تكن غير نهاية طبيعية للخرق المخروق في السفينة ، تتدفق عن طريقه المياه . .

* * *

ويقوم شاب مفتون ينجرف في تيار الشهوات ، يقول : من يحرِّجُ عليّ فيما أصنع ؟ أفعل ما بدا لي ، وليس لأحد عليّ سلطان .

ويتركه الناس !

يتركونه يفسق ويفجر ، وينشر الفاحشة في المجتمع .

يتركونه خوفاً وطمعاً إن كان من زمرة السادة الأثرياء . أو يتركونه استصغاراً لشأنه واستهتاراً بعواقب الأمور .

وقد يقول في نفسه يبرر فجوره : وهل يمكن أن أؤثر في المجتمع وأنا شخص واحد مفرد الكيان ؟ هل أنا إلا قطرة في الخضم ؟ فلتكن قطرة سم ! فكيف تفسد الخضم ؟! هل قبلة في الهواء ، أو ضمة مختلسة في الظلمة ، أو ساعة ممتعة في خلوة ، هل هذه يمكن أن تؤثر في المجتمع وتهدم الأخلاق ؟!

وإنه لينسى . . والساكتون عليه ينسون . .

إنه يتصور نفسه شخصاً واحداً فى المجتمع ـ قطرة واحدة فى الخضم ـ وينسى والناس ينسون أن كل واحد يقول ذلك وهو يلقى القطرة السامة فى الخضم . . ولابد أن تتجمع فى النهاية السموم .

بل قد يتبجح الفتى زيادة فيحدث نفسه أو يحدث الناس : وهل أنا وحدى الذى سأصلح المجتمع الفاسد ؟ لقد فسد وانتهى الأمر . فهب أننى امتنعت وحدى عن الجريمة واحتملت وحدى اضطراب النفس واحتراق الأعصاب . . فأى جدوى من ذلك وأية نتيجة ؟ أحترق فى النهاية وحدى ويستمتع الآخرون . . !

وقد يكون ذلك حقاً !

ولكنه لم يكن كذلك حين فجر أول فاجر وتركه الناس ! حين خرق أول مفتون مكانه فى السفينة فلم يأخذوا على يديه . حين ظن أول خارج على المجتمع والأخلاق والتقاليد أنه لن يضر الناس شيئاً ، وأنه يخرق مكانه وهو حر فيه . .

وحين يصبح حقاً ما يقوله الفتى . . حين يكون المجتمع فاسداً إلى المدى الذى لا يصلحه امتناع فرد ، ولا تؤثر فيه نظافة ضمير . . حين ذلك تصدق نة الله وتصدق كلمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . ينهار المجتمع كله ، وتغرق السفينة الطافحة بالمياه .

* * *

وتقوم فتاة مستهترة ، تتقصع فى مشيتها ، وتتكسر فى حديثها ، وتعرى ما يحلو لها من جسدها ، وتتعرض للشباب تثير فتنة الجنس ونوازع الحيوان . . تقول : من يحرج علىّ فيما أصنع ؟ أفعل ما بدا لى ، وليس لأحد علىّ سلطان .

ويتركها الناس !

وقد تقول لنفسها أو تقول للناس تبرر جريمتها : وأى شىء أصنع ؟ هل أقتل نفسى كبتاً وأترهبن ؟ أريد أن أنطلق . أريد أن أستمتع بالحياة . هذا حقى ! كيف أناله ؟ كيف أناله نظيفاً إذا أردت ؟ أما ترون كل شىء حولى فسد واشتد به الفساد ؟ فإن تطهرت فكيف أعيش ؟ كيف أحصل على نصيبى المشروع من متعة القلب ومتعة الجسد ومتعة الحياة ؟ وهل أنا التى أفسدت هؤلاء الشبان أم إنهم هم الفاسدون ؟ إنهم حيوانات . إنهم ذئاب ! إنهم هم يسعون إلى الصيد و يوقعون بكل غرة لا تعرف وسائل الذئاب . فلست بدعاً فى المجتمع . ولن أصده أنا عن التيار !

وقد يكون فى كلامها شىء من الحقيقة .

ولكنه لم يكن حقيقة يوم فجرت أول فتاة فتركها الناس . حين خرجت أول فتاة مستهترة عابثة تحطم التقاليد وتهزأ بالأخلاق . . يوم خرقت مكانها فى السفينة وقالت هو مكانى ولن يضر غيرى من الناس .

وحين يصبح ما تقول الفتاة حقاً . . حين يفسد المجتمع إلى المدى الذى تحس الفتاة النظيفة أنها لا تجد نصيبها المشروع من متعة الحياة . . حينئذ تتحقق سنة الله ، ويؤذن المجتمع كله بالانهيار .

* * *

ويقوم كاتب يزين الفاحشة ويحسنها للناس ، يقول : أنا حر فيما أكتب . أين حرية الرأى ؟ أكتب ما بدا لى . وليس لأحد علىّ سلطان .

ويتركه الناس .

يتركونه يعيث فى الأرض فساداً ، وينشر السموم فى النفوس . يستهترون بأمره ، أو يشغلون عنه فى زحمة الحياة . ويهزون أكتافهم يقولون : هل نحن به مكلفون ؟

ويستفيد ذلك الكاتب . . يستفيد شهرة وثراء، ونفوذاً فى بعض الأوساط . ولا عجب فى ذلك فتجار المخدرات وتجار الأعراض يصلون إلى الشهرة وإلى الثراء .

ويغرى النجاح غيره من الكتاب فينغمسون فى تيار الجريمة ، ويقولون إنهم تقدميون . يقومون برسالة مقدسة ، رسالة القضاء على التقاليد « البالية » والتحضير لمجتمع جديد .

وقد يتبجح كاتب أو صاحب صحيفة يبرر الجريمة لنفسه ، أو يبررها للناس . . يقول : ماذا أصنع ؟ لقد تسمم الجو كله وصار القراء لا يقبلون على الأدب « الأبيض » والكلام النظيف . لقد تعودوا على الصحف العارية والقصص العارية ، والأفكار العارية . ولم يعد يؤثر فيهم غير هذا اللون من الإنتاج . هب أننى أصدرت صحيفة نظيفة فكيف تعيش ؟ من يقرؤها ؟ كيف تغطى نفقاتها ؟ ألا يكون ذلك انتحاراً ؟ أو غفلة ؟ أو جنوناً لا يقدم عليه عاقل ؟ وماذا يصنع كاتب واحد أو صحيفة واحدة فى التيار المسموم ؟ هل يصنع إلا أن يفشل ويثير بفشله شماتة الشامتين ؟!

وقد يكون هذا حقاً !

ولكنه لم يكن كذلك حين خرج أول كاتب يدعو إلى الفاحشة وتركه الناس . يوم هزوا أكتافهم وقالوا : هل نحن به مكلفون ؟

وحين تصل الأمور إلى هذا الحد . . يوم يصبح الكاتب النظيف لا يجد الجمهور الذى يقرؤه أو الصحيفة التى تنشر له . . يوم لا تستطيع الصحيفة النظيفة أن تعيش . . يومئذ تكون السفينة قد أثقلت بما فيها من الماء ، واضطربت مما فيها من الخروق . . وتتحقق سنة الله فى الأرض ، ويؤذن المجتمع كله بالانهيار .

ويقوم والد ضعيف الشخصية تحكمه امرأته ، أو يحكمه الترف والاسترخاء . . يترك أولاده يعيشون بلا رقابة ، يقول : هم أولادى وأنا حر فيهم! أفعل ما بدا لى ، وليس لأحد علىّ سلطان .

ويتركه الناس . . يتركونه تملقاً ، أو يتركونه استخفافاً ، يقولون : هو فى النهاية الخاسر ، وما لنا عليه من سبيل .

ويستمتع الأولاد . . يستمتعون بالتحلل من الضوابط والانفلات من القيود .

ويستمتعون بلذة الهبوط !

وهى لا شك متعة للمزاج المنحرف والكيان المقلوب ! فمن الثابت أن الكيان الناقص ـ حين لا يكمّل بالطريق الصالح ، ولا يوجه التوجيه السليم ـ يجنح إلى التكملة من طريق هابط ، ويحس « بالنضوج » « والتميز » « والمتعة » من هذا الطريق !

وهذه المتعة تغرى غيرهم من الأولاد فينجرفون فى الطريق . . يجدون اللذة المنشودة ، والنضوج المنحرف ، والتميز بين الأقران . . ويروحون يتمردون على أهليهم وينفلتون من القيود .

ويقول الولد لأبيه : أنت رجعى . أنت متأخر . أنت تتجاوز حدودك . من تظننى أمامك . لست طفلاً . أنا رجل مثلك . أنا أتحمل مسئولية نفسى . تريد أن تستعبدنى بما تنفق علىّ ؟ كلا ! إنك ملزم بالإنفاق . ولكنك لا تملك التدخل فى شئونى . أنا أدرى بما يضر وما ينفع . أنا أعيش بعقلية جديدة متحررة متطورة . أنا أفهم ما يدور فى المجتمع وأتطلع إلى المستقبل . . إلى الأمام . . فليس لك علىّ سلطان !

وتقول الفتاة لأبيها وأمها : أين تعيشون ! إنكم تعيشون بعقلية الجيل

الغابر . . المتأخر . . الرجعى . . أما أنا فأعيش بعقلية متحررة . ماذا تريدون منى ؟ هل تظنون أنكم أنتم الرقباء علىّ إن أردت أن أفسد ؟ وأن وصايتكم علىّ تحمينى من السقوط ؟ أنا القيمّ على نفسى . وأنا الرقيبة على أخلاقى ! وليست الأخلاق هى الملابس أو هى العزلة عن المجتمع ! ما الذى سيحدث حين أكشف ذراعىّ أو ساقىّ ؟ أو أكشف جزءاً من صدرى ؟ هل ستنقص منى قطعة ؟ وماذا سيصنع لى الشبان حين ينظرون إلىّ أو يكلموننى فى الطريق؟ هل ستخرب الأرض ؟ إنكم تتصورون الأمور بعقلية جامدة لا تفهم « التطور » ولا تفهم الحياة ! وعلى أى حال فذلك شأنى وحدى . وليس لأحد علىّ سلطان !

ويشكو الآباء ! يشكون أن أبناءهم تمردوا عليهم ، ولم يعد فى مقدورهم أن يردوهم إلى السبيل ! ويقولون إن المجتمع فاسد يفسد عليهم الأولاد !

وقد يكون ذلك حقاً !

ولكنه لم يكن كذلك يوم فسد أول جيل من الأبناء فتركوهم يفسدون !

وحين يحدث ذلك . . حين ينفلت الأولاد بلا ضابط ، لا يحكمهم أهلوهم ، ولا يحكمهم مدرسوهم فى المدرسة ، لأن الوالد قد أفسد على المدرس مهمة التوجيه . . حينذاك تتحقق السنة الماضية ، وتغرق السفينة وكلها خروق !

* * *

ويقوم طالب يغش فى الامتحان ، يقول : أصنع ما بدا لى . وليس لأحد علىّ سلطان .

ويتركه الناس .

يتركونه « إشفاقاً على مستقبله » ! أو يتركونه استخفافاً بالجريمة .

وينجح الطالب ، ويستمتع بهذا النجاح الميسر البسيط التكاليف . .

ويغرى النجاح غيره . . فيروحون يعبثون العام كله ، يتسكعون فى الطرقات ، ويجرون كالكلاب الشاردة وراء الفتيات . . ثم يسهرون الأسبوع الأخير يحضّرون « البرشام » من أجل الامتحان .

ويحس الآخرون من الشرفاء أنهم مظلومون ! هم يسهرون العام كله فى العمل ، ثم لا يبلغون ـ بالجد والأمانة ـ ما يبلغه الغشاش بغشه ، وقد ينجح وهم يرسبون ! وقد يصل إلى « الوظيفة » وهم قاعدون !

لا جرم ينصرف أغلبهم عن النشاط العلمى الصادق ، وينقلبون إلى خادعين غشاشين !

ولا جرم تجد بعد ذلك الموظف الذى يذهب فى الموعد وينصرف فى الموعد ـ إن شدد عليه فى الحضور والانصراف ـ ولا يعمل عملا طيلة وقت « الديوان» !

ولا جرم تجد المهندس الذى لا يوافق على « مواصفات » البناء أو المواصفات الصحية » وأنت تؤديها على وجهها الأكمل ، ثم يوافق على أقل منها كثيراً إن دسست فى يده « المعلوم » !

ولا جرم تجد الطبيب الذى لا يعطيك العلاج الكامل الذى يشفيك من أول مرة ، ويروح يطيل العلاج ويطلبك تمر عليه مرة بعد مرة ليزداد منك كسباً ، وتكسب معه معامل الأدوية التى « يتعامل » معها أو يكسب الموردون !

كلهم غشاشون !

كلهم ذلك الطالب الأول الذى تركه الناس غافلين .

وحين يصبح الغش هو « العملة » السارية فى المجتمع ، فلا جرم يذهب المجتمع أسفل سافلين !

ويقوم موظف يرتشى . . يقول : من يحرِّج علىَّ فيما أصنع ؟ أفعل ما بدا لى، وليس لأحد علىَّ سلطان .

ويتركه الناس !

يتركونه بدافع الحاجة إلى ما فى يده من المصالح ، أو بدافع الخوف إن كان من ذوى النفوذ .

ويستفيد ذلك المرتشى . . يستفيد ثروة سهلة المأخذ مضمونة الورود .

ويغرى الثراء غيره من الموظفين ، فيندفعون فى تيار الرشوة ينهلون من هذا المنهل الدنس ، ويلغون فى دماء المحتاجين .

وتأخذ الموجة مداها . . حتى تصبح الأمور كلها بالرشوة ، ومن غيرها توصد الأبواب فى وجه أصحاب الحقوق .

وقد يتبجح موظف يبرر الجريمة لنفسه أو يبررها للناس ، يقول : هل أنا وحدى الذى أرتشى ؟ هل أنا وحدى الذى أشيع الفساد . . فهل تنتظم مصالح الناس كلها ، وتفتح لهم الأبواب ؟ كل ما يحدث أننى أحرم نفسى من المعين المتاح ، وأظل فقيراً وأنا رب أسرة وصاحب عيال .

وقد يكون هذا حقاً . .

ولكنه لم يكن كذلك حين بدأت الرشوة أول مرة وسكت عنها الناس ، أو شجعوها وأغروا بها المرتشين .

وحين تصل الأمور إلى هذا الحد . . حين تصبح الرشوة هى الأصل والنظافة هى الشذوذ . . حينذاك تقع الهزة التى تزلزل المجتمع كله من القواعد، فلا يلبث أن يتهاوى إلى القرار . .

* * *

صدق رسول الله . وصدقت حكمته :

ما أسكر كثيره فقليله حرام . .

مروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب . .

إن حديث السفينة يجمع ما فى الحديثين السابقين ، ولكنه يضيف إليهما معانى أخرى جديرة بالتدبر والتفكير . .

وإن أول ما يستلفت النظر فى الحديث أن الرسول الكريم لم يقسّم ركاب السفينة بحسب أماكنهم الظاهرية فى المجتمع ، علواً وسفلا ، وثراء وفقراً ، وبروزاً وتواضعاً . . لم يجعل « السادة » هم الأعلون و« الشعب » هو الأسفل . كلا . فما كانت هذه القيم هى التى تقسم الناس عند رسول ينطق بحكمة الله ويبلغ رسالة الله .

إن الأعلى فى تقدير الله ورسوله « هو القائم فى حدود الله » . هو المنفذ لشريعة الله . هو المهتدى بهدى الله . أياً كان مكانه الظاهرى فى المجتمع . فالقوة الحقيقية لا تستمد من عرض الأرض ، ولا من القيم الأرضية المنقطعة عن الله . إنما تستمد من الله . من الإيمان به والاعتزاز بهذا الإيمان . « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » فالإيمان هو القوة الحقة ، وهو مصدر « العلو » ومصدر التوجيه . وكـل قيمة سواه زائفة لا تلبث أن تضيع .

أما « الواقع فيها » فهم العصاة المنحرفون فى كل جانب من جوانب العصيان والانحراف ، بصرف النظر عن مركزهم « الظاهرى » فى المجتمع . فهذا المركز لا يساوى شيئاً ، ولا يقى من الله شيئاً حين يؤدى إلى الميل عن الطريق . بل إنه لا يساوى شيئاً فى واقع الأرض ، ولا يقى من النتيجة المحتومة حين يأذن الله بتحقيق السنة فى أوانها المعلوم ! فحين تغرق السفينة من شدة الفساد لايقول السـادة للشعب : اغرقوا أنتم وحدكم ونحن ناجـون من الهلاك !

وحين يطلب الرسول من القائمين فى حدود الله أن يأخذوا على يد الواقعين فيها لا يحدد مهمتهم بمراكزهم الظاهرية فى المجتمع ، وإنما بأماكنهم الحقة فى سفينة المجتمع وسفينة الحياة ، فما داموا مؤمنين فهم القوة الحقة . القوة الموجهة . القوة الآخذة على أيدى العابثين . وهذه مهمتهم ، عليهم أن يعرفوها بصرف النظر عن ثرائهم أو فقرهم ، ورئاستهم أو مرءوسيتهم . . فما بهذا توزن الأمور . .

* * *

والأمر الثانى هو وحدة المصلحة فى المجتمع ، وإن بدت المصالح ظاهرة الخلاف !

إن كل الأمثلة التى أوردناها حول محور واحد ، مستمد من معنى حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم . فهؤلاء قوم لهم « مصالح قريبة » يستنفعون منها على حساب الآخرين . ولو تركهم المجتمع حقبة من الزمن فسوف يستفيدون حتماً من هذا السكون . يستفيدون توفير الجهد ، وتوفير مغالبة الشهوات . ويأتيهم رزقهم قريباً سهلا ميسراً لايتعبون فيه .

ولكن حقبة من الزمن تمضى ـ طويلة أو قصيرة ـ ثم يأخذ الفساد فى الانتشار وتبدأ السفينة فى نهاية المطاف . . تغرق وتأخذ معها الظالمين والمظلومين على السواء ! ومن ثم فالمصالح النهائية واحدة . والأخطار النهائية واحدة . . ليست هناك مصلحة لفرد هى مصلحته وحده وشأنه بمفرده . كل مصلحة هى مصلحتهم جميعاً وكل ضرر يصيبهم جميعاً . . ولا يستطيع أحد أن يتخلى عن مسئوليته فى هذا السبيل .

وهنا تبرز بعض الحيرة إزاء الآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا عليكم

أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم »[1] . وهى حيرة وقع فيها المسلمون الأوائل أنفسهم فقام أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ينبههم إلى طريق الصواب .

قال : يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية . . وإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده (رواه أبو داود والترمذى) .

نعم « عليكم أنفسكم » عليكم المجتمع الذى تعيشون فيه . وليس عليكم غيركم من المجتمعات أو الأفراد غير المسلمين . فهؤلاء لا يضرونكم متى اهتديتم وعملتم بما يريده الله . أما الأعمال التى يقوم بها المسلمون فى المجتمع المسلم فليس حكمها كذلك . إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة لهذا المجتمع . فإما أن يحس بوحدة المصلحة فيأخذ على يد الظالم ـ من أى نوع كان ظلمه ؛ لنفسه أو للآخرين ـ فينجو المجتمع كله ، وإما أن يترك الأمر خوفاً وطمعاً أو استهتاراً وتهاوناً . . فتحدث الطامة التى تغرق الجميع .

* * *

ومن وحدة المصلحة ينشأ الترابط بين أفراد المجتمع ترابطاً لا يتخلخل ولا تنقطع عراه . إنهم ركاب سفينة واحدة ، ناجية أو غارقة ، فكيف يمكن أن ينفصل بعضهم عن بعض أو يتجاهل بعضهم وجود بعض ؟

وإنه ـ وهو ترابط المصلحة الواحدة التى يلتقى عندها الجميع ـ هو فى الوقت ذاته ترابط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله . ترابط التعاون على البر والتقوى وليس ترابط التعاون على الإثم والعدوان .

* * *

---

(١) سورة المائدة [١٠٥] .

ترابط لا يقول فيه إنسان : ما شأني أنا بفلان ، فليصنع ما يشاء ولن أتدخل في أمره !

ولا يقول فيه إنسان لآخر : ما شأنك بي ! سأصنع ما أشاء ولا تتدخل في أمري !

كلا ! إن أمور المجتمع لا يمكن أن تستقيم كذلك . . لابد من يقظة كل فرد لأعمال أخيه ، ولابد من رده عن الخطأ والإسراف فيه .

وليس معنى ذلك أن يتحول المجتمع إلى منازعات ومشاحنات !

كلا ! فليس هذا هو الطريق !

« ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال إنني من المسلمين ؟ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم »[1] « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »[2] .

هذا هو الطريق . .

إن الترابط هو ترابط الحب . لا البغضاء .

وإن النصيحة لتصدر من هذا المنبع العذب . أنا أنصح أخي لأنني أحبه . لأنني أريد له الخير . لأنني أريد أن آخذ بحجزه أن يقع في النار ! وهو يتقبل مني النصيحة على هذا الوضع . . لأنه يحبني ويثق في نظافة النصح والتوجيه .

أما « الأخذ على اليد » بما تحمله من معنى الزجر أو العنف فليست أول الطريق !

---

(١) سورة فصلت [٣٣ ـ ٣٤] .　　(٢) سورة النحل [١٢٥] .

إنما هى النهاية حين تفشل الوسائل كلها ولا يتبقى غير هذا الطريق !

* * *

ورب قائل أن يقول ـ عن إخلاص نية ـ مقالة الفتى المستهتر أو الفتاة الهوجاء :

وهل أنا وحدى سأصلح المجتمع ؟ هل أنا ـ حين أومن وأعمل صالحاً ـ سأنقذ السفينة الهاوية إلى القرار !

كلا !

فحين توجد فى مجتمع يوشك أن يتحطم ، فى سفينة توشك على الهلاك ، فلن تقفها وحدك عن النهاية المحتومة ، ولن تنقذها وحدك من الهلاك .

نعم . ولكنك تنقذ نفسك !

فحتى حين تتحقق السنة التى لاتتخلف . . حتى حين ينفذ الوعد الحق وتتحطم السفينة .

حتى حينئذ . . فشتان بين غريق وغريق !

غريق فى جهنم لأنه فاجر .

وغريق فى الجنة لأنه شهيد .

فمن ذا الذى يبيع الآخرة بالدنيا ، ويسعى إلى النار ـ وهو يغرق ـ فى حين يملك ـ حتى وهو يغرق ـ أن يسعى إلى النعيم ؟!

أنـتمُ أعـلَم بأمُورِ دُنيـَاكم !

قصة هذا الحديث معروفة . .

فقد مر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المدينة على قوم يؤبرون النخل ـ أى يلقحونه ـ فقال : « لو لم يفعلوا لصلح له » فامتنع القوم عن تلقيح النخل فى ذلك العام ظناً منهم أن ذلك من أمر الوحى ، فلم ينتج النخل إلا شيصاً (أى بلحاً غير ملقـح ، وهو مر لا يؤكل) فلما رآه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هذه الصورة سأل عما حدث له فقالوا : « قلت كذا وكذا . . » قال : «أنتم أعلم بأمور دنياكم » (عن عائشة وعن ثابت وعن أنس) : وفى صحيح مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «ماأظن يغنى ذلك شيئاً » . . ثم قال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه . فإنى إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن . ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به » .

* * *

تلك قصة الحديث . .

وهى واضحة الدلالة فيما تركه الرسول صلى الله عليه وسلم للناس من أمور يتصرفون فيها بمعرفتهم ، لأنهم أعلم بها وأخبر بدقائقها . إنها المسائل «العلمية الفنية التطبيقية » التى تتناولها خبرة الناس فى الأرض ، منقطعة عن كل عقيدة أو تنظيم سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى . وهى فى الوقت ذاته تصلـح للتطبيق مع كل عقيدة وكل تنظيم ، لأنها ليست جزءاً من أى عقيدة

أو أى تنظيم . . بل إنها حقائق علمية مجردة عن وجود الإنسان ذاته بكل عقائده وكل تنظيماته . كحقيقة اتحاد الأكسجين والإيدروجين لتكوين الماء ، وحقيقة انصهار الحديد فى درجة كذا مئوية . هى حقائق ليست ناشئة عن وجود الإنسان . وإنما هى سابقة له ، موجودة منذ وجدت هذه العناصر فى الكون . وقصارى « تدخل » الإنسان فيها أن يكتشفها ويعرفها ، ثم يستغلها لصالحه ، ويطبقها فى حياته العملية .

وقصة النخل لا تخرج عن كونها حقيقة علمية اكتشفها الإنسان فطبقها فى حياته العملية : حقيقة التلقيح والإخصاب فى عالم النبات . وهى عملية لا يتم بدونها تكون الثمرة ونضجها على النحو المعروف . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقطع فيها برأى ـ كما هو ظاهر من الحديث ـ وإنما قال : « إنما ظننت ظناً » . ولعل الشك الذى ساوره صلى الله عليه وسلم قد جاء من اعتقاده بأن الله لا بد أن يكون قد أودع فطرة الحياة ما تتم به عملياتها «البيولوجية » دون حاجة إلى تدخل الإنسان . . ! وطالما خطر فى نفسى أنا هذا السؤال : من كان يلقح النخيل ، وينقل فسائل النباتات التى لا تنمو بغير التنقيل ، قبل أن يوجد الإنسان على ظهر الأرض ، والنباتات كلها سابقة للإنسان فى الخليقة؟! ولا شك أن علماء النبات لديهم لهذا السؤال جواب . ولكنى أقول فقط : إنها خاطرة جديرة بأن تخطر على قلب انسان !

هى إذن المسائل « التكنيكية » البحتة بتعبيرنا العلمى الحديث . المسائل التى يتحصل عليها المؤمنون والكفار سواء . ولا تؤثر بذاتها فى عقيدة القلب أو اتجاه الشعور .

ومع ذلك فإن فريقاً من الناس يريدون أن يفهموا منها غير ما قصده الرسول وحدده . يريدون أن يبسطوها حتى تشمل الحياة الدنيا كلها ،

بتشريعاتها وتطبيقاتها ، باقتصادياتها واجتماعياتها ، بسياساتها وتنظيماتها . فلا يدعون لدين الله ولرسول الله مهمة غير « تنظيف القلب البشرى وهدايته » بالمعنى الروحى الخالص ، الذى لا شأن له بواقع الحياة اليومى ، ولا شأن له بتنظيم المجتمع وسياسة الأمور فيه . ثم يسندون هذا اللون من التفكير للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجعلونه ـ هو ـ شاهداً عليه ! !

وما أريد أن أبادر بسوء الظن ! فقد يكون هذا الفريق من الناس مخلصاً فى تفكيره مطمئناً إليه ! وقد يكون ذلك بالنسبة إليه مهرباً « لا شعورياً » من ضغط المفاهيم الأوربية ـ الغربية أو الشرقية ـ عن الدين من جانب ، و«العلوم» الاقتصادية والاجتماعية المنقطعة عن الدين من جانب آخر . مهرباً يلجأ إليه العاجزون المغلوبون ، ليحتفظوا بعقيدتهم الشخصية فى الله ، ثم يكونوا بعد ذلك تقدميين أو تحرريين ! !

ولكن قليلاً من النظر كان جديراً أن يردهم إلى التفكير الصائب والتقدير الصحيح ، ويرفع عنهم هذه الذلة الفكرية التى يعانونها إزاء الغرب ، فتلوى أفكارهم ـ بوعى أو بغير وعى ـ وتفسد مشاعرهم فينحرفون عن السبيل .

لو كان الإسلام رسالة « روحية » بالمعنى المفهوم لهذا اللفظ ـ المعنى الوجدانى الخالص الذى لا شأن له بواقع الحياة اليومى ـ ففيم إذن كان هذا الحشد الهائل من التشريعات والتوجيهات فى القرآن والحديث ؟

وفيم إذن يقول الله سبحانه وتعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ! ثم يعقب فى نفس الآية بالتهديد للمخالفين : « واتقوا الله إن الله شديد العقاب » [1]؟!

---

(١) سورة الحشر [٧] .

فيم هذا كله إذا كانت المسألة هى « تنظيف القلب » ليس غير ؟ !

* * *

وإن تنظيف القلب البشرى لمهمة ضخمة دون شك . . مهمة تحتاج إلى رسول !

وإنها ـ حين تنجح ـ هى الضمان الأول لسلامة الحياة كلها واستقامتها ونظافتها . فإن أخفقت . . فلا ضمان !

والإسلام يوجه لهذا القلب أكبر عناية يمكن أن يوجهها إليه نظام أو دين . فهو يربطه دائما بالله ، ويوجهه دائماً لخشيته وتقواه والعمل على رضاه . ثم هو يتتبع هذا القلب فى كل نزعة من نزعاته ، وكل ميل من ميوله . . فى الأعمال الظاهرة والمشاعر المستترة . . فى السر الذى يخفى على الناس ولا يخفى على الله ، بل فيما هو أخفى من السر ، من المشاعر السارية فى حنايا الضمير[1] . . يتتبعه فى كل ذلك ، عملاً عملاً وخاطراً خاطراً وفكرة فكرة . . فينظفها بخشية الله ، والحياء من رقابته الدائمة التى لا يغيب عنها شيء فى الأرض ولا فى السماء . . ويوجهه إلى صفحة الكون الواسعة ، وما فيها من آيات القدرة المعجزة ، ليمسح عنه الغلظة التى تحجر المشاعر ، والغبش الذى يحجب عنه النور . . ويطلقه من إسار الشهوات والضرورات التى تثقله وتشده الى الارض ، لينطلق خفيفا صافيا شفيفا يسبح الله ويفرح بهداه . .

نعم . . يبذل الاسلام ذلك الجهد الضخم كله «لتنظيف القلب»

ولكن الإسلام دين الفطرة . . الدين الذى يعرف أسرار الفطرة فيقدم لها ما يصلح لها وما يصلحها . الدين الذى يعالج الفطرة على أحسن وجه وأنسب

(١) « يعلم السر وأخفى » سورة طه [٧] انظر فصل : « تعبد الله كأنك تراه » .

طريقة ، ليخرج منها بأقصى ما تستطيع أن تمنحه من الخير . الدين الذى يتلبس بالفطرة فيملؤها كلها ولا يترك فراغاً واحداً لا ينفذ إليه . الدين الذى يأخذ الفطرة كما هى كلاً واحداً لا يتجزأ ، كلاً يشمل الجسم والعقل والروح ، فيعالجها العلاج الشامل الذى يأخذ فى حسابه الجوانب كلها . ويأخذها مرتبطاً بعضها ببعض فى نظام وثيق . .

ومن ثم لا يأخذ شعور الإنسان ويترك سلوكه . لا يأخذ « مبادئه » ويترك « تطبيقه » . لا يأخذ آخرته ويدع دنياه . . وإنما يعمل حساب ذلك كله فى توجيهاته وتشريعاته سواء .

* * *

الإسلام يتناول الحياة كلها ، بكل ما تشتمل عليه من تنظيمات . ويرسم للبشر صورة كاملة لما ينبغى أن تكون عليه حياتهم فى هذه الأرض .

إنه يتناول الإنسان من يقظته فى الصباح الباكر حتى يسلم جنبه للنوم فى آخر المساء . يعلمه ويلقنه ماذا يصنع وماذا يقول أول ما يفتح عينيه ، ثم حين يقوم ، ثم حين يقضى ضرورته ، ثم حين يؤدى صلاته ، ثم حين يضرب فى مناكب الأرض باحثاً عن رزقه : زارعاً أو صانعاً أو عاملاً أو بائعاً أو شارياً . . ثم حين يتناول طعامه ، ثم حين يستريح من القيلولة ، ثم حين يعود فى آخر اليوم ، ثم حين يلقى زوجه وأطفاله ، ثم حين يضع جنبه ، ثم حين يأخذ فى النوم . . . بل إذا صحا كذلك فى وسط النوم فزعاً أو غير مفزّع !

وكما تناول الإنسان فرداً فى جميع أحواله ، فقد تناوله كذلك وهو يعيش فى المجتمع مع غيره من الأفراد . فعلم المجتمع ولقنه كيف تكون الصلات بين أفراده ، وكيف تكون العلاقات . وكيف ينشىء تقاليده على المودة والإخاء والحب ، والتكافل والتعاون . وكيف يشترى وكيف يبيع . وكيف يزرع وكيف

يجنى . وكيف يملك وكيف يوزع الثروة بين الأفراد .

وكما تناول الفرد والمجتمع تناول كذلك « الدولة » ممثلة المجتمع . فأعطى ولى الأمر حقوقاً وأوجب عليه واجبات . وعلمه ولقنه كيف يحكم الناس ، وكيف يقيم بينهم العدل ، وكيف يوزع المال بينهم ، بأى نسب وعلى أى الفئات ومن أى الموارد . وكيف يعلن الحرب وكيف يقيم السلم ، وكيف يتعامل مع الدول والجماعات والأفراد .. .

الحياة كلها بجميع دقائقها وتفصيلاتها . الحياة المادية والفكرية والروحية . الحياة الفردية والاجتماعية . الحياة بكل ما تشمله من مفاهيم . وكانت تلك هى طريقة الإسلام الفذة فى « تنظيف القلب » !

أوَيعجب الناس من هذا القول ؟ ! أيقولون ما للقلب والروح بواقع الأرض؟ بالاقتصاد والسياسة والاجتماع ؟ !

ويح الناس !

أليسوا هم الذين « اكتشفوا » فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين أن «مشاعر » الناس مرتبطة بوضعهم الاقتصادى وبعلاقات الإنتاج ؟ !

فيم العجب إذن إن قيل لهم إن الإسلام وهو « ينظف القلب » يضع فى حسابه إقامة نظام اقتصادى عادل ، ونظام اجتماعى متوازن ، ونظام سياسى راشد محكم الرباط ؟

أم هم يُدِلّون على الله بعلمهم ؟ ويحسبون أنهم وحدهم الذين أدركوا هذه الحقيقة ، بينما الله الذى خلق الخلق وهو أدرى به ، قد فاته إدراكها ؟ ! سبحانه وتعالى عما يصفون علواً كبيراً . .

كلا ! إن الإسلام قد تناول هذه الحقائق كلها قبل أن يصحو لها الناس .

وبيّن أن الحياة السليمة النظيفة المتكاملة لا يمكن أن تتم فى داخل القلب معزولة عن واقع الحياة . لا يمكن أن تتم فى الوجدان والمشاعر إن لم يكن لها رصيد مواز لها من العمل والسلوك . ومن ثم لم يجعل الدين « عقيدة » كامنة فى الضمير . وإنما جعلها نظاماً قائماً على عقيدة ، ومجتمعاً قائماً على هذا النظام .

صحيح أنه لم ينزل فى ذلك إلى مهاوى المادية الهابطة والمذاهب الاقتصادية المنحرفة . لم يجعل المادة هى الأصل ، والإنسان هو التابع الذليل الذى لا يملك نفسه إزاء التطورات الحتمية للاقتصاد والإنتاج . . وإنما جعل الإنسان هو الأصل . جعل القلب البشرى هو المصدر الذى تصدر عنه الطاقة ويصدر عنه الإشعاع . ولكنه فى الوقت ذاته لم يشأ أن يجعله معلقاً فى البرج العاجى ، يطلق شحنته الهائلة فى الفضاء فى قفزات الخيال وسبحات الروح . وإنما أراد لهذه الطاقة الضخمة أن تنتج فى واقع الأرض ، وأن تنشئ مجتمعها ونظامها بوحى من العقيدة وهدى من الله ، فيتوازن بذلك الشعور والعمل ، والوجدان والسلوك ، ويتوازن بذلك « الإنسان » .

وكان هذا هو الأمر الطبيعى ما دام الإسلام « دين الفطرة » .

إن المشاعر المرفرفة والوجدان المشرق والأفكار الجميلة لا قيمة لها إذا لم تتحول إلى قوة بانية فى عالم الواقع ، إذا لم تتحول إلى حقيقة ظاهرة ملموسة يحس بها الناس .

والأعمال « العظيمة » والإنتاج الباهر والحركه الفاعلة لا قيمة لها إذا لم تستند إلى شعور عميق بالخير ، وإحساس حى بروابط الأخوة الإنسانية والالتقاء فى الله .

بل هما ـ بدون هذا التزاوج ـ ينقلبان إلى شر مدمر للبشرية :

الأولى تنقلب إلى زهادة وعزلة تتوقف بها الحياة .

والثانية تنقلب إلى طغيان كافر يدمر الحياة على وجه الأرض .

ولا بد منهما معاً لتستقيم الحياة ، مرتبطين متمازجين ، لا انفصال بينهما ولا افتراق !

تلك هى « الفطرة » البشرية .

والإسلام دين الفطرة وكلمة الله .

ومن ثم لم يكن بد ـ وهو « ينظف القلب البشرى » ـ أن يجعل فى حسابه الباطن والظاهر ، والشعور والعمل ، والوجدان والسلوك .

وهو بذلك واقعى إلى أقصى حدود الواقعية . . .

إنه يعنى أشد العناية بعالم الروح ونظافة الضمير . وإنه يثق فى أن القلب البشرى مصدر الطاقة ومصدر الإشعاع . ولكنه ـ مع ذلك ـ لا يفترض فى الناس كلهم أنهم من أولى العزم ! لا يفترض فيهم أنهم يستطيعون دائماً أن يعيشوا بقلوب نظيفة فى مجتمع غير نظيف ، أو يمارسوا العدالة فى مجتمع غير عادل ، أو يحرصوا على الفضائل فى مجتمع يحرص على المنكرات .

ففى « الفطرة » البشرية ضعف يحتاج إلى سند ويحتاج إلى معونة : « وخلق الإنسان ضعيفاً » .

هنالك ثقلة الضرورة ودفعة الشهوات .

وهى « واقع » لا مصلحة فى تجاهله ، ولا سبيل إلى نكرانه .

ولا بد من تنظيمه . . لا بد من تنظيمه ليستطيع الإنسان أن يفرغ من ضغطه على الأعصاب والمشاعر . وينطلق حيث يشاء ، حيث يليق بخليفة الله أن يكون .

من أجل ذلك يحرص الإسلام على واقع المجتمع أن يكون نظيفاً ليعاون

الفرد على نظافة الضمير . ولن تكون نظافة المجتمع إلا بنظام اقتصادى عادل ، ونظام اجتماعى متوازن ، ونظام سياسى راشد يحكم الرباط بالعقيدة الصحيحة والإيمان الصحيح .

* * *

من صميم مهمة الدين إذن فى تنظيف القلب كانت هذه التشريعات وهذه التوجيهات التى تتناول الأسرة والمجتمع ، وسياسة الحكم ، وسياسة المال . يستوى فى ذلك التشريع الاقتصادى ، والتشريع السياسى ، والتشريع الجنائي ، والتشريع المدنى ، والتشريع الدولى . . والتوجيهات العديدة المتعلقة بكل هذه الشئون .

ولم يكن الإسلام ـ وهو جاد فى تناول الإنسان والحياة البشرية بالتنظيم والتنظيف ـ ليغفل هذه الشئون الواقعية كلها ، وينصرف إلى تهذيب الضمير فى عالم المثل والأحلام . ولم يكن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ليتخلى عن مهمته الماثلة فى ذلك الشأن ، وينفض يديه منها ، ويقول للناس : «أنتم أعلم بأمور دنياكم » أى تصرفوا أنتم فى تشريعاتكم وتنظيماتكم ، فى سياسة المال وفى سياسة الحكم ، فى علاقات المجتمع ، وفى القوانين التى تنظم الحياة . .

كلا ! لم يكن ليفعل ذلك . ولو فعل فما أدى إذن رسالة الله . والله هو الذى يقول له فى مجال التكليف : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون »[1] .

* * *

---

(١) سورة الجاثية [١٨].

ولكن هذا الفريق من الناس الذى ذكرناه آنفا ، أو فريقاً غيره يقول : إن الحياة تتطور . فكيف إذن يمكن أن يشرع الله أو يشرع رسوله للأجيال التالية لعصر القرآن ؟ إن ما كان يصلح منذ ألف وأربعمائة عام لا يصلح اليوم . وما كان حركة تقدمية ثورية فى ذلك التاريخ يصبح اليوم أمراً رجعياً عتيقاً متجمداً لا يجارى التطور ولا يصلح للحياة . . ومن ثم قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الكلمة ليفتح الباب للتطور ، ولا يقف بالناس عند تشريعات وتنظيمات قد اقتضتها بيئة معينة وظروف معينة ، وإنما يتركهم يشرعون وينظمون فيما هم أدرى به من الأمور .

« التطور » . . ويح الناس من التطور !

إنه هوس يصيب هذا القرن العشرين ! هوس يخيّل إليهم أن الحياة كلها بلا قواعد ، والكون كله بلا ناموس !

لقد كانت فكرة التطور اكتشافاً جديداً بالنسبة لأوربا فى تاريخها الحديث ، بعد أن غرقت فترة طويلة فى ظلام العصور الوسطى ، لا تعلم شيئاً ولا تساير ركب الحياة . وفى القرن التاسع عشر امتلأت رءوس المفكرين والعلماء بفكرة التطور ، فى العلم والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، ثم تلقفتها الجماهير فى نهاية القرن الفائت وفى خلال هذا القرن . . تلقفتها بما يشبه اللوثة . . تفسر بها كل شىء وتفسد بها كل شىء !

بينما العالم الإسلامى لم يكن غريباً عن فكرة التطور وآثاره فى حياة الجماعة . فقد فطن إليها ابن خلدون فى مقدمته وعالجها علاجاً « علمياً » وافياً يشهد له بالبراعة والتدقيق . ولقد فطن إليها عمر بن عبد العزيز فى صدر الإسلام إذ يقول « يجدّ للناس من الأقضية بقدر ما يجد لهم من القضايا » وفطن إليها الفقه الإسلامى كله ، وهو يضع التفريعات الدائمة فى كل شئون الحياة النامية المتجددة جيلاً بعد جيل .

ولكن الفكر الإسلامى لم يخرج عن صوابه وهو يحس بالتطور ويساوق خطاه . فلم يفهم من التطور أن الحياة بلا قواعد ، والكون بلا ناموس ! لم يفهم منه أن ينفصل عن الأصول الثابتة وينطلق بلا دليل!

وجاء « العلم » فى القرون الأخيرة يؤيد الفهم الإسلامى للتطور ، ولا يؤيد اللوثة التى أصابت الجماهير فى أوربا ، وأشباه العلماء هناك ، وانتقلت عن طريقهم إلى الشرق فى عصرنا الأخير .

* * *

الحياة البشرية تتطور ، والكون كله يتطور . . نعم ! ولكن هذا لا ينفى وجود قواعد ثابتة فى هذا الكون وفى الحياة البشرية . . أولها وأبسطها ، وأقربها إلى البديهة ، صدور الكون كله عن إرادة الله الخالق المدبر ، وانتظام سننه ونواميسه انتظاماً دقيقاً معجزاً لا يخل ثانية ولا ثالثة ، ولا قيد شعرة فى هذا الفضاء الهائل الرهيب !

السدم تتطور إلى نجوم . . والنجوم تتطور وهى تدور ، فتسخن وتبرد ، وتتكور وتنبعج . وتسرع وتبطئ . . ولكن شيئاً واحداً من ذلك لا يحدث بلا قانون ، وشيئاً واحداً من ذلك لا يحدث مخالفاً للناموس الناموس الذى يكشف العلم طرفاً منه كلما تيسرت له الوسائل وأتيحت له الأدوات .

ومجموعتنا الشمسية الصغيرة التى نحن جزء منها ، تتبع نواميس الكون وهى تتطور ، وتسير على النهج الذى أراده لها الله منذ الأزل ، لا تنحرف لحظة إلى يمين أو شمال .

والأرض التى نعيش عليها تحكمها ـ فى تطورها ـ النواميس الأزلية تحكم الكون ، فيسير كل شىء على سطحها كما أراده الله وفق قانونه ارتضاه .

الأكسجين هو الأكسجين . والإيدروجين هو الإيدروجين . فى الأرض والشمس وجميع النجوم سواء . والماء قدر من الأكسجين وقدران من الإيدروجين (أيدم) لا تتغير هذه النسبة سواء ركب الماء فى المعمل أم هطل من السماء . . والمطر هو المطر . . بخار يصعد من البحر ، فينطلق إلى الجو، فيتكاثف ، فيتركز ويثقل ، فينزل إلى الأرض . . سواء حدث ذلك « طبيعياً» أم أنزل صناعياً من السماء . . لا يتغير قانون واحد من قوانينه ، ولا يختل فى مساره عن الناموس .

والحياة على الأرض كذلك . . تطورت . . لا نعلم علم اليقين كيف ، وإن كنا نحاول أن نصل إلى اليقين . . ولكنا نجد من أبحاث العلم ما يؤكد لنا تأكيداً قاطعاً أن الحياة لم تنشأ على الأرض مصادفة ، ولم يكن استمرارها مئات الألوف من السنين كذلك بالمصادفة . وإنما هو نتيجة النظام المحدد المقرر لذى بنيت به المجموعة الشمسية وأخذت به مسارها فى الفضاء . بحيث لو اختلت نسبة واحدة من النسب لانعدمت بذلك الحياة . . فهى إذن إرادة الخالق ، وتدبيره الدقيق المعجز . ولولاه لم تقم حياة [1]

والإنسان بعد ذلك . . الإنسان الذى ملأه غرور العلم . . وأصابته لوثة التطور . . ذلك الإنسان يتطور . تتغير حياته يوماً بعد يوم ، ويستحدث جديداً كل يوم . ولكنه مع ذلك خاضع للنواميس . النواميس التى تدخل التطور فى حسابها ، فإذا التطور ذاته جزء من القانون الثابت الذى يحكم الكون ويحكم الحياة !

* * *

---

(١) انظر بالتفصيل فى هذا الشأن كتاب « العلم يدعو للإيمان » تأليف أ . كريسى موريسون وترجمة محمد صالح الفلكى وكتاب « مع الله فى السماء » تأليف الدكتور أحمد زكى .

يتطور الكون . . فهل تغيرت طبيعته ؟ هل تغير تكوُّنه من طاقة أو مجموعة من الطاقات ؟

كلا ! لم يقل بذلك أحد من العلماء ! وإنما تتغير « صوره » و « حالاته » ويظل جوهره ثابتاً على ما هو عليه .

ثم . . هل تغيرت الحقيقة السابقة على ذلك . . حقيقة الأزل والأبد وهى صدور الوجود عن إرادة الله ؟

كلا ! لا يقول بذلك أحد من العقلاء ! فالكون فى وجوده ، كالكون فى تطوره . كالكون فى فنائه حين يقدر له الفناء ، صادر عن إرادة الله ، مرتبط دائماً بإرادة الله .

والإنسان كذلك يتطور . . فهل تتغير طبيعته ؟ أم تتغير صوره وحالاته ويثبت الجوهر الذى فيه ؟

هل تتغير الحقائق الأزلية فى تكوينه :

أنه صدر عن إرادة رَبِّكَ : « وإذ قال رَبُّكَ للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »[1] .

وأن البشر جميعاً من نفس واحدة : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة »[2] .

وأن من هذه النفس ـ أى من جنسها ـ قد خلق « الزوج » الذى يكملها ويلتقى بها ويوائمها : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها »[3]

---

(١) سورة البقرة [٣٠] .

(٢) سورة النساء [١] .

(٣) سورة النساء [١] .

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »[1].

وأن من هذه النفس وزوجها انبث الخلق كلهم والقبائل والشعوب «خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء»[2]. « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[3].

وأن الإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية من حديد ونحاس وكلسيوم وفوسفور وأكسجين وإيدروجين ، وتتمثل فيها شهوات الأرض ودوافع الأرض . ونفخة من روح الله تتمثل فيها روح الإنسان الشفيفة القادرة على السمو والرفعة ، كما تتمثل فيها الإرادة الضابطة والقدرة على الاختيار : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين »[4] « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين»[5] « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها »[6] .

هل تتغير هذه الحقائق الأزلية مهما تغيرت « مظاهر » الحياة ؟ أم تتغير المظاهر والأصل فى ثبوته لا يزال ؟

وهل الإنسان فى ذلك إلا بضعة من الناموس الأكبر الذى يحكم الكون ويحكم الحياة ؟ بضعة محكومة بذلك الناموس ، خاضعة لإرادة الله ؟

---

(١) سورة الروم [٢١] .
(٢) سورة النساء [١] .
(٣) سورة الحجرات [١٣] .
(٤) سورة المؤمنون [١٢] .
(٥) سورة الحجر [٢٩] .
(٦) سورة الشمس [٧ ـ ١٠] .

كل ما فى الأمر أن الله قد ميز هذا المخلوق وكرمه حين نفخ فيه من روحه . فجعله « واعياً » لعملية الثبوت وعملية التطور . وجعل له الإرادة التى يختار بها طريقه : مع الخط الواصل المهتدى إلى الله ، أو مع الخط الضال المنقطع عن الله . وجعل هذا الازدواج فى طبيعته هو الناموس الثابت بالنسبة لدوره فى الحياة ، الذى يترتب عليه الجزاء فى أخراه : « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

* * *

فى الإنسان إذن عنصر ثابت لا يتغير مهما تغيرت ظروفه ، ومهما تطورت حياته على الأرض . لأنه يتصل بحقائق أزلية لا يدركها التغيير .

وفيه إلى جانب ذلك عنصر متغير . أو قل : « صور » متغيرة من الجوهر الثابت ، و « حالات » متطورة للكيان الدائم . ولكنها فى تغيرها وتطورها لاتخرج بالإنسان عن كونه الإنسان . ولا تنفصل فى لحظة واحدة عن كيانه الدائم ، بحكم ترابط النفس الإنسانية وشمولها لكل ما يشتمل عليه الإنسان .

ومن هذا الثبوت وهذا التطور فى فطرة البشر ـ وهى كذلك فطرة الكون ـ نشأت فى حياة الإنسان قواعد ثابتة وبجانبها أحوال متغيرة ، ولكنها فى تغيرها ـ كما أسلفنا ـ لا تنفصل عن القواعد الثابتة فى الحياة .

فقد ترتب على الحقائق الأزلية الخالدة حقائق أخرى ، فصارت مثلها خالدة دائمة لا تتغير .

ترتب عليها أن يحس الخلق ـ بفطرتهم ما دامت سليمة ـ يحسوا بعظمة الله بالقياس إلى ضآلتهم ، فيعبدوه ، ويستمدوا منه العون فى الحياة .

وترتب عليها أن يحس الزوجان ـ اللذان خلقهما الله من نفس واحدة بحنين

والتصاق بعضهما ببعض، وأن وجودهما لا يتكامل إلا متحدين متوادين متراحمين .

وترتب عليها أن يحس الناس ـ حين تصفو سريرتهم وتنظف نفوسهم ـ بالأخوة فى الإنسانية ، إذ هم جميعاً من نفس واحدة ذات رحم مع الجميع ، فيتعاونوا ويتشاركوا فى الخير . .

تلك عناصر دائمة لأنها ترتكز على أسس دائمة .

وثمة عناصر أخرى تجدّ كل يوم ، نتيجة تطور المعلومات البشرية ، والتفاعل الدائم بين العقل والكون، يحاول أن يتعرف أسراره ، ويستكنه كنهه ، ويستخرج كنوزه ، ويسخرها لمنفعته ، فتقوم أوضاع جديدة ، وينتقل الناس من بداوة إلى حضارة ، ومن زرع إلى صناعة ، ومن صناعة إلى . . . ؟

والإسلام دين الفطرة يجارى البشرية فى جانبيها جميعاً ، بما يناسبهما جميعاً .

الجانب الأول يعطيه شرائع ثابتة . والجانب الآخر يعطيه أسساً ثابتة ، ثم يترك له مجال التطور الدائم فى إطار هذه الأسس الثابتة ، متمشياً فى ذلك مع فطرة الكون وفطرة الحياة .

الجانب الأول يعطيه العقيدة . .

والعقيدة ليست ثابتة فى الإسلام وحده ، بل ثابتة فى جميع الديانات منذ أرسل الله الرسل للناس يربونهم ، ويعلمونهم حقيقة أزلية واحدة : أن الله واحد . وأن الخلق كله خلقه . وأن حق الألوهية على العباد أن يعبدوه ويخلصوا له الدين .

وتلك العقيدة الواحدة لا تتغير ، لأن الأساس الذى تقوم عليه ثابت لا يتغير . وقد عنى القرآن ببيان هذه الحقيقة ، وخاصة فى السور التى تستعرض رسالة الرسل الواحدة المكررة على مر الأزمان كسورة هود وسورة الأعراف .

وإلى جانب العقيدة يعطيه كذلك تشريعات الزواج والطلاق ، والحدود . وتشريعات مدنية مختلفة .

الزواج والطلاق ـ أو العلاقة بين الرجل والمرأة عامة ـ عنصر ثابت له تشريع ثابت ، لأنه يرتكز على أسس لا تتغير . هي الرجل من جهة والمرأة من جهة ، والعلاقة الشديدة التي تجذب كلاً منهما للآخر وتشده إليه .

والحياة تتغير ظروفها : المجتمع يتغير . والاقتصاد يتغير . ونظم التعليم تتغير . والسياسة تتغير . ولكن ذلك لا يغير شيئاً من الحقيقة التي تحكمها الفطرة بوظائفها وعملياتها الحيوية ، وغددها وكيماوياتها ، وهي أن الرجل رجل والمرأة إمرأة ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر ، ولا انفصال ولا استقلال ![1] .

والحدود ـ أي العقوبات المفروضة على الجرائم ـ عنصر ثابت كذلك ، لأنه يرتكز على شيء ثابت : هو علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ـ أو علاقة الفرد بالمجتمع ـ وحرمة كل إنسان التي لا يجوز أن يعتدي عليها الآخرون .

والحياة تتغير ظروفها : ارتباطات العمل تتغير . وعلاقات الإنتاج تتغير . وعلاقات الإنسان « بالآلة » تتغير . والنظم السياسية تتغير . ولكن ذلك لا يغير شيئاً من الحقيقة الثابتة التي تحكمها وقائع التاريخ البشري . وهي أن

---

(١) في كتاب « شبهات حول الإسلام » في فصل : الإسلام والمرأة ، بحث تفصيلي لعلاقة الرجل والمرأة وطبيعتها في الإسلام ، وقد بينت هناك كيف عالج الإسلام الأمر في عدالة كاملة ، وكيف أن « التطور » المزعوم لا يضيف شيئاً لهذه العدالة أما التطور بمعنى الفساد الخلقي أو بمعنى المساواة الآلية بين المرأة والرجل ، فقد كانت له ظروف محلية في أوربا ـ شرحتها هناك ـ وليس « قيمة » حقيقية من القيم الإنسانية .

الناس كلهم من نفس واحدة ، وعلاقة الرحم تربط الجميع [١] .

وكذلك بعض التشريعات المدنية لها صفة الثبوت كالبيع والإيجارة والرهن والدين والوكالة . . إلخ فكانت لها تشريعات ثابتة . ومما يلفت النظر فى هذا الشأن أن التشريع الفرنسى الحديث فى المسائل المدنية قد أخذ كثيراً عن فقه مالك ، إذ كان أقرب الفقهاء ـ جغرافياً ـ إلى فرنسا بسبب انتشار مذهبه فى الشمال الإفريقى ! كما أن الفقه الأوربى كله قد أخذ عن الفقه الإسلامى حين أعطى المرأة أخيراً جداً حق الملك والتعامل والتصرف الحر فى الشئون المدنية[٢] .

أما الجانب المتطور من الحياة البشرية ، وهو فى الوقت ذاته متصل بالجانب الثابت ، فهو سياسة الحكم وسياسة المال ، و « شكل » المجتمع أو شكل البيئة ، من بدوية إلى زراعية إلى تجارية إلى صناعية . . . الخ .

وتلك أمور كما قلنا تتطور بتطور العقل البشرى وتفاعله مع الكون ، ولكنها فى تطورها لا تنفصل عن الأصل الثابت ، ولا يمكن أن تنفصل ، بحكم وحدة الإنسان وترابطه ، واستحالة تجزئته وتقطيعه وفصل بعضه عن بعض .

وفى هذه الأمور كان الإسلام حكيماً غاية الحكمة ، مساوقاً للفطرة ، ملبياً لحاجاتها ، فوضع الخطوط العريضة ولم يضع التفصيلات . أو وضع « الإطار »

---

(١) فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » بحث مفصل فى نظرة الإسلام للفرد والمجتمع ، والجريمة والعقاب . وفى هذا الكتاب فصل عنوانه « ادرءوا الحدود بالشبهات » يعرض المعانى الإنسانية الرفيعة فى تشريع الحدود الإسلامى .

(٢) تقول الشيوعية إن هذه العلاقات كلها لا وجود لها إلا حيث توجد الملكية الفردية . وحيث تلغى الملكية الفردية تزول هذه التشريعات . وهذا حق . ولكن الشيوعية ذاتها قد بدأت تبيح الملكية الفردية من جديد . والبقية تأتى !

الذى يريد للبشرية أن تتطور فى حدوده ، وترك لكل جيل من الأجيال المتعاقبة أن يضع «الصورة» فى داخل الإطار . الصورة التى تناسبه ، وتتفق مع ظروفه المادية ومبلغه من العلم والإنتاج . بشرط واحد : هو أن تكون الصورة على قدر الإطار ، لا أكبر منه فيتحطم ، ولا أصغر منه فيبدو حولها الفراغ .

فى سياسة الحكم وضع أساسين : العدل والشورى :

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[1]

« وأمرهم شورى بينهم »[2] .

ثم لم يحدد طريق الشورى . وهل يكون مجلس واحد أو مجلسان . وهل ينتخب المجلس أو يعين . وهل يكون التمثيل شخصياً أو مهنياً . . إلخ . . إلخ وترك ذلك للتجارب البشرية واجتهادها فى التطبيق .

وفى سياسة المال وضع مجموعة من الأسس ذات طابع واحد يجمعها فى النهاية . هو ضرورة اشتراك الناس فى الخير ، بحيث لا يكون هناك محروم .

قرر القرآن أن المال فى الأصل مال الله ، وهو أعطاه للجماعة : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »[3] « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم»[4] .

وقرر أن الجماعة هى صاحبة الحق الأول فيه ، وأن الفرد « موظف » فيه ، يستحقه بحسن قيامه عليه ، فإذا لم يحسن القيام عليه عاد حق التصرف فيه إلى الجماعة : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً »[5] .

---

(١) سورة النساء [٥٨] .
(٢) سورة الشورى [٣٨] .
(٣) سورة الحديد [٧] .
(٤) سورة النور [٣٣] .
(٥) سورة النساء [٥] .

وقرر أن الله يكره حبسه فى يد فئة قليلة من الناس تتداوله فيما بينها ويحرم منه مجموع الأمة « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » [1]

وقرر فريضة الزكاة على الأموال حقاً معلوماً للفقراء ، تأخذه لهم الدولة وتعطيه لهم من بيت المال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها . . » [2]

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » [3]

ويقول : « لأن يمنح أحدكم أخاه (أرضه) خير له من أن يأخذ خرجاً معلوماً » [4]

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهليها . كما قسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيبر » [5].

ثم لم يحدد طريقة اشتراك الناس فى مال الله الذى أعطاه للجماعة وهل تكون بتأميم المرافق العامة . أم تكون بإشراك العمال فى رأس المال ، أم تكون بإعطائهم الأجور التى تكفل حاجاتهم الضرورية التى بينها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حديثه : « من ولى لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً أوليست له زوجة فليتخذ زوجة ، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً ، أوليست له دابة فليتخذ دابة » [6] .

لم يحدد صورة معينة من هذه الصور ، وترك الأجيال المتعاقبة تفكر لنفسها

---

(١) سورة الحشر [٧] .
(٢) سورة التوبة [٦٠] .
(٣) ذكره صاحب مصابيح السنة فى الحسان .
(٤) رواه البخارى .
(٥) رواه البخارى .
(٦) رواه أحمد وأبو داود .

فى الصورة التى تناسبها ، وتتلاءم مع إمكانياتها . ولم يضع ـ فى سياسة المال أوسياسة الحكم ـ تفصيلات ثابتة جامدة ، لكى لا تصطدم بالنمو المطرد فى أحوال الجماعة ، والتطور المستمر فيها . ولكنه مع ذلك لم يدع هذه الأمور تفلت من الأصول الثابتة . ولم يدعها للناس يتصرفون فيها بلا دليل ، بحجة أنهم أعلم بأمور « دنياهم » ! فقد كان هذا التصرف الحر ـ فى أوربا ، وفى خارج الإطار الإسلامى عامة ـ شناعة بشعة يندى لها جبين الإنسانية « المتطورة » ! كان الإقطاع فى أوربا ثم كانت الرأسمالية بكل ما فيها من مظالم غنية عن الوصف . وكلاهما حرام فى نظر الإسلام ، فهما يجعلان المال ـ سواء فى صورة أرض أو رأس مال ـ دولة بين الأغنياء وحدهم، ويحرم منه بقية الناس. ثم كان الخلاص منهما هو الشيوعية ـ أى العبودية المطلقة للدولة ، الدكتاتورية المطلقة على الأفراد !

والإسلام ـ كلمة الله لجميع البشر على الأرض ولجميع الأجيال ـ لم يكن ليترك الناس لمثل هذا « التطور » الذى يرسفون فيه فى الأغلال ، وإنما يأخذ بيدهم دائماً ويرشدهم ، حتى وهو يترك لهم حرية النمو وحرية التكيف مع ما يجدّ من الأوضاع ، لكيلا يشردوا عن الطريق ، ولكى يحتفظوا بتحررهم الوجدانى الدائم فى جميع الأوضاع وجميع الأحوال .

* * *

تلك قصة التطور التى جُـنّ بها الناس فى القرن العشرين ! تطور فى أشكال الحياة الظاهرة ، وثبات ـ مع ذلك ـ فى الأصول . . فالإسلام لم يغفل ذلك التطور من حسابه. لم يقف فى سبيله. وفى الوقت ذاته لم ينحسر عنه ويترك الناس بلا دليل . إنه يساوق التطور على الدوام ويحفظه من التعثر والانحراف. يحفظه برده إلى القواعد الثابتة فى الحياة البشرية . إلى الله

والعقيدة. والإطار الدائم الذى يرسم العلاقة التى ينبغى أن تكون بين أفراد الجنس الواحد، الذين انبثقوا من نفس واحدة، وما تزال تصل بينهم الأرحام.

وبذلك يكون الإسلام دين الفطرة.

وهو كذلك منهج الحياة [1].

---

(١) انظر - إن شئت - كتاب «التطور والثبات فى حياة البشرية»

الفهرس

رقم الإيداع : ٨٩/٣٩٠١
الترقيم الدولي : ٦ ـ ٣١٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)